كتاب الهلال
لا شيوعية ولا استعمار
بقلم
عباس محمود العقاد
سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KI 'AB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٠ - ربيع الثانى ١٣٧٧ - نوفمبر ١٩٥٧

No. 80 — November 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال - بوستة مصر العمومية - مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) - مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ - سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا - السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا - الامريكتين ٥ر٥ دولارات - فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

لا شيوعية ولا استعمار

بقلم
عباس محمود العقاد



الاستاذ عباس محمود العقاد

مقدمة

لا شيوعية ولا استعمار

عنوان هذا الكتاب هو خلاصة موضوعه فى اربع كلمات ، وهو النتيجة التى ينتهى اليها البحث فى الكتاب . فموقف الشرقيين بين الشيوعية وبين الاستعمار انه لا شيوعية ولا استعمار

ولمن شاء ان يوازن بين الخطرين ، ولكن الموازنة بينهما ليست من اغراض هذه الرسالة . فكلاهما خطر وكلاهما حقيق بالحذر والاجتناب ، وقد يشتد الخطر من مرض ويهون الخطر من مرض ، ولكن الطب لا يبحث الامراض ليوازن بينها وان عرف مبلغ الخطر من كل منها ، وانما يبحث الامراض ليمنعها جميعا ويعالج كلا منها بالعلاج الذى يناسبه ويحتاط لكل منها بالحيطة التى تدفعه ، ومن كان يعلم ان الزكام اهون شرا من السرطان فهو لا يعلم هذا العلم ليختار الزكام ويدفع السرطان . اذ لا يصاب المريض بالداء الا على اضطرار لا خيرة فيه

ولا حيدة بين مصيبتين ، ولا انصاف فى الموازنة بين شرين .

فان الحيدة والانصاف عمل القضاء الذي يتساوى لديه الطرفان، واما المهدد بالمصاب فلا حيلة له فيما يهدده غير العداء والمقاومة . فان فعل غير ذلك فهو واقف من الشر موقف الغريب ، بل هو واقف موقف الغريب من نفسه ومن وجوده ، كأنه ينظر الى وجود لا يعنيه

قلت فى مقدمة كتابى عن هتلر : « فى هذا الكتاب ما انا بقاض ولا يسرنى ان اكونه ، لاننى لا احسن التسوية بين الخصمين فى قضية الطغيان والحرية الانسانية ، واحمد الله اننى خصم قديم فيها منذ نيف وثلاثين سنة »

واكرر فى الكلام على الشيوعية والاستعمار ما قلته عن النازية ودين الغصب والقسوة . فلا قضاء هنا بل عداء . ومن كان يعلم الشيوعية والاستعمار حق العلم ثم ينظر اليهما نظرة الغريب الذى لا يعنيه امرهما فهو مجرم ، ومن كان يجهلها فهو احجى الا يقف منهما موقف القضاء ولا موقف العداء

□

ويأبى علينا الموازنة بين الشيوعية والاستعمار شىء آخر ، وهو ان الشيوعية استعمار يحيط بعيوب الاستعمار كله ، وليس استعمارها طارئا من طوارىء الضرورة الموقوتة تخضع له اليوم وتنبذه بعد فترة تقصر او تطول . بل هو اساس من اسس المذهب الشيوعى لا فكاك منه فى اول الطريق ولا فى آخر الطريق ، فانه المذهب الذى يقرر لاصحابه ان السيطرة على ثروة الامة شرط لازم للسيطرة على ازمة السياسة

فيها ، فمن رفع يديه عن ثروة بلد من البلدان فلا بقاء لسلطانه فيه !

فالشيوعية والاستعمار — من ثم — لا يتناقضان ولا موازنة بينهما على هذا الاعتبار ، واذا جاز ان تنعقد الموازنة فانما تكون بين جهد الكفاح للشيوعية وجهد الكفاح للاستعمار ، او بين الخطر المقبل والخطر المدبر ، وسيكون هذا مدار البحث فى الفصول التالية لينتهى الى نتيجة واحدة وهى اننا لا نختار فى مقاومة الخطرين الا بمقدار ما نستعد للمقاومة بسلاحها النافذ فى جميع الاحوال

عباس محمود العقاد



الجزء الأول

لا شيوعية

* الشيوعية من الوجهة العلمية
* قيصرية
* واستبداد
* وعنصرية
* مع العالم
* اكثر من دعوة واكثر من دولة

الشيوعية من الوجهة العلمية

كان الشيوعيون يسمون مذهبهم بالفلسفة المادية ، او بالاشتراكية العلمية ، او بالاشتراكية التقدمية ، ويريدون بذلك ان يميزوا فلسفتهم من الفلسفات التى تقوم على المبادىء الروحية او تبنى الاشتراكية على الدين والعاطفة وترجع بها الى قواعد الاخلاق المقررة فى العرف والعقيدة

وكانت هذه الاسماء تسوغ فى الاسماع عند المناداة بها فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، قبل اكثر من مائة سنة

كانوا يومئذ يحسبون أن « المادة » شيء ملموس مفهوم غنى عن التفسير صالح لتفسير كل شيء بحقائقه ومقاييسه

وكانوا يومئذ يظنون ان العلم قادر على كل معضلة ، كاشف لكل سر ، واصل الى كل حقيقة

وكانوا يومئذ ينكرون العاطفة الانسانية والمطالب المثالية ، كأنها ضلالة مسلمة لا تكون حيثما كانت الا مناقضة للعقل والرأى القويم ، مسترسلة مع الاهواء الكاذبة والاوهام الخادعة

وكل اولئك اليوم سخف لا يستند اليه صاحب رأى ولا يقنع احدا من الماديين او المثاليين

فالمادة نفسها غير مفسرة وغير مفهومة ، فهى من باب أولى لا تفسر ما عداها ولا تزال سرا من الاسرار يتطلب منا الفهم ولا يدنينا من فهم غيره

كان « المادى » قبل مائة سنة يخبط الارض بقدمه

ويقول : « هذه هي الحقيقة التي تستند اليها ، واما ماعداها من الآراء المثالية والعقائد الروحية فهى خيال او ضلال »

فاليوم يعلم أن مادة الارض التى يخبطها بقدمه أبعد حقيقة وأعسر فهما من كل ما يقال عن الروحيات والمثاليات

ما هى هذه المادة ؟ هل هى لون ؟ هل هى جسم ؟ هل هى ثقل ؟ هل هى امتداد ؟

لا .. ان اللون عارض من عوارض النور والنظر يتغير على حسب الاضاءة وعلى حسب العين التى تراه

والجسم كله ذرات تنشق فتتحول الى اهتزاز فى الاثير ، ولا يدرى احد ما هو الاثير ، لانه شيء لا طعم له ولا جرم ولا حركة ولا فرق فى المدلول عند عارفيه بين كلمة الاثير وكلمة الفضاء .

والثقل لا وجود له خارج نطاق الجاذبية ، والامتداد شيء لا يفهم لانه لا يتناهى فى القصر ولا يتناهى فى الطول ، ســواء نظرنا الى امتداد الزمن او امتداد المـكان

فالمادة اخفى من الروح

والفيلسوف الذى يدق الارض بقدمه ويتوهم انه وضعها على حقيقة الحقائق ليس له رأس اصح من تلك القدم فى فهم حقائق الاشياء

اما « العلم » فقد ذهبت عنه فتنة الغرور الاولى واضطر ــ راغما ــ الى التواضع فى دعواه ، فغاية ما يدعيه اليوم انه يصف ويسجل ، وان مجموعة العلم كله انما هى مجموعة علوم وتسجيلات ، وان ما كان يعرفه علماء العصر الذى نشأت فيه الاشتراكية العلمية لا يفسر ظاهرة واحـدة من ظواهر

زمنه فضلا عن تفسير الظواهر الطبيعية والتاريخية والنفسية عامة تامة من مبدأ الخليقة الى آخر الزمان

اما الزراية بالعاطفة الانسانية فيقابلها فى العصر الحاضر افراط فى التعويل على خفاياها وتخريجاتها ، ودراسة لكل سر بمسبار العاطفة حتى « الفلسفة المادية » وبواعثها من نفوس الماديين

□

ولا محل لبيان التناقض بين دعوى « التقدمية » وبين الرجوع فى كل رأى الى فكرة انسان عاش فى اوائل القرن التاسع عشر ، كائنا ما كان نصيبه من العلم والذكاء

وقد يجوز قبل مائة سنة ان يقال عن دعاوى الفلسفة المادية انها مقررات علمية تنظر الى الوقائع المحسوسة ولا تنبىء عن نتيجة من نتائج الاطوار الاجتماعية الا كانت حقيقة من حقائق الرياضة التى لا تقبل الاختلاف بين حاسب وحاسب ولا بين حين وحين

فلعل هذا كان جائزا قبل مائة سنة ... اما اليوم فكل الحقائق المحسوسة التى انبأ بها كارل ماركس فهى اباطيل محسوسة لا يمترى فيها ماديان ولا مثاليان

كان يقول ان امم الصناعة الكبرى هى الامم المعرضة لظهور الشيوعية فيها ، فاذا بالامر ينقلب من النقيض الى النقيض ، واذا بالشيوعية تظهر بين الامم على قدر خلوها من الصناعة الكبرى

وكان يقول ان الغاء رأس المال يقضى على اسباب الاستبداد

ويمنع تعدد الطبقات ، فاذا بالغاء راس المال فى روسيا ينتهى الى استبداد يتحكم فى السياسة والثروة العامة والخاصة ويتحكم فى الارواح والاقدار ، ويخرج للمجتمع طبقة من الحكام اقوى من الطبقة المعاصرة لها فى كل امة من امم راس المال

وكان يقول ان الثروة تتجمع ولا تتوزع ، فاذا هى تتوزع وتنتشر حتى يعد الشركاء فى المصنع الواحد بالالوف

وكان يقول ان المطبعة والورق والبارود والمدن التجارية هى عوامل التاريخ فى الحضارة الاوربية ، فاذا بهذه العوامل جميعا قد وجدت فى الصين قبل وجودها فى الغرب بألفى سنة ، وبين حضارة الصين وحضارة الغرب ابعد ما يكون من فارق بين حضارتين

كذلك لم يظهر من حركات الشيوعية فى العصر الحديث انها حركات خاصة بالصناعة الكبرى او بحالة دون غيرها من الحالات الاقتصادية او الاجتماعية ، فان هذه الحركات قد ظهرت بين زراع سبرطة وبين عمال رومة وبين طوائف الزنج فى البصرة ، ولم يكن لها من سبب فى جميع هذه الحالات الا ازدحام المتذمرين فى مكان واحد واغتنامهم للفرصة من ضعف الدولة على اثر هزيمة حربية او كارثة داخلية . فما حدث فى روسيا بعد الحرب العالمية الاولى كان يصح أن يحدث فيها قبل الف سنة كما حدث فى غيرها ، وما كان حدوثه فى روسيا لانها بلاد صناعية ، ولا لانها تطورت بالاطوار الاجتماعية التى قررتها الفلسفة المادية ، ولكنه حدث لان الجيوش المنهزمة ثارت فاستولت على زمام الثورة فيها طائفة منظمة كالطائفة التى استولت على حركات النازيين والفاشيين بين الالمان والايطاليين

ونكاد نعتقد ان حركات الثورة التى نشبت فى روسيا وما ماثلها كانت تنشب فيها بعنوان من العناوين غير الشيوعية لولم يولد كارل ماركس ولم ينتشر بين اتباعه مذهب يسمى بالفلسفة المادية او الاشتراكية العلمية . فما كان حتما لزاما ان يشيع فى روسيا مذهب رجل ولد فى المانيا ودرس مذهبه فى انجلترا وجمع مؤتمراته فى سويسرة او بلجيكا او بلاد الشمال ، وكل عنوان صالح لالصاق اسمه بالحركة الثورية متى هزلت الحكومة وتجمع الثوار المتمردون فى مكان واحد ، فاذا كانت للشيوعية مزية فى هذا الباب على سائر الدعوات فمزيتها انها غنية عن المجهود العقلى فى اقناع المتمردين المتذمرين بالاستماع اليها ، فانه مامن مذهب من المذاهب الثورية الا وهو فى حاجة الى بعض المجهود العقلى لتعليم المبادىء وبث العقائد وتقرير الآراء الا الشيوعية ... فهى على نقيض ذلك لاتحتاج الى مجهود للاقناع بل الى اسقاط كل مجهود واعفاء الذهن من كل اقناع ، فلا وازع ولا عرف ولا رياضة للفكر او للخلق على سنة متبعة ولا مبدأ مرعى ولا صفة مطلوبة . بل المطلوب كله نكسة الى حالة البهيمية السائمة او الى شر من حالة البهيمية السائمة ، لان البهيم فى القطيع يدين ببعض الموانع ويحجم عن بعض الدوافع ، وليس للشيوعى مانع يمنعه ولا دافع يحجم عنه ، الا أن يكون مانع القيد ودافع السوط والعصا

والمجتمعات الانسانية منذ كان لها نظام متبع فى عهد القبيلة تنشىء العادات والشرائع وتروض النفوس على سنن الاخلاق والآداب ، وتهديها الفطرة الى ضرورة الوازع لجمحات الجهل والشباب ، وتنقضى الاحقاب بعد الاحقاب ولا يزال الجهل

والشباب بحاجة الى وازع جديد يعزز ما تقادم عليه العهد من وازع قديم . وهذا هو العمل الانسانى الدائم الذى لايستغنى عن جهد العقول ورياضة النفوس ، وهذا هو السد الذى يصد التيار الجارف ويسوسه للرى والخصب بدلا من اطلاقه للخراب والبوار . ومامن مذهب من مذاهب الثورة والاصلاح يستغنى عن رياضة ذلك التيار بشىء من التوجيه والتنظيم ، الا الشيوعية التى تعلن أن الخراب مطلوب وأن الوازع مكروه ، وأن الجهل والشباب مما لايحتاجان الى وازع ولا رياضة ، ولا يمنعهما مانع أن يستبيحا كل محظور

ما حاجة هذا المذهب الى مجهود ؟ انما يحتاج الى اعفاء النفس من كل مجهود ، ولا صعوبة فى ذلك على مخلوق جاهل مغلوب على هواه .

فالشيوعية هى مذهب الطفل الممسوخ الذى يفهم أن الذنب على ابويه وعلى البيت وعلى المدرسة وعلى الامة وعلى الخلق والخالق ، ولكنه هو لا ذنب له فى أمر من الامور ، ولا حرج عليه أن يقعد عن كل عمل ويكسل عن كل واجب ويطالب بكل حق ، ويسىء الى كل انسان

والشيوعية هى بالايجاز « أفيون الشعوب » الرخيص وخمرتها المبذولة ، يبلغ من سخفها انها تصم الدين بهذه الوصمة وتذهل عن حقيقتها هى عن غباء مفرط او عن لجاجة فى المكابرة والانكار : « وهذا القول الهراء عن الدين آخر وصف يمكن أن ينطبق عليه واول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه . فالشعور بالمسئولية والمسكرات نقيضان ، وما من دين الا وهو يوقظ فى نفس المتدين شعورا

حاضرا بالمسئولية فى السر والعلانية ويجعله على حذر من مقارفة الذنوب بينه وبين ضميره ويوحى الى الفقراء والاغنياء على السواء أنهم لن يستحقوا أجرا بغير عمل وبغير جزاء . وشتان هذا وقول القائلين ان الدين يخدر المرء كما تخدره المسكرات وعقاقير الافيون . انما المسكر حقا هو مذهب كارل ماركس من جميع نواحيه ، لانه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية ويغريه بالتطاول والبذاء على ذوى الاقدار والعظماء. انه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية لانه يلقى بالمسئوليات كلها على المجتمع ويقول ويعيد للعجزة وذوى الجرائم والآثام أنهم ضحاياه المظلومون وان التبعة كلها فى عجزهم واجرامهم واقعة عليه ، ويتمم عمل السكر بحذافيره حين يطلق السنتهم بالاتهام على كل ذى شأن ينظرون اليه نظرة الحسد والضغينة ويعز عليهم أن يساووه بالعزيمة والاجتهاد . ولو أنك نظرت الى فعل السكرة فى المخمور لم تجد لها فى نفسه شهوة تستهويه غير هذا الشعور باسقاط المسئولية وهذا التطاول على أعظم عظيم كما يقول كل سكران غابت به السكرة عن حقائق الاشياء . وما كان للماركسية من سحر يستهوى السفلة اليه غير هذا السحر الذى يبذلون فيه الدراهم ويجدونه فى الماركسية جمعا بغير ثمن ، وعليه المزيد من التغرير بالعقول وشفاء أدواء الحسد والانتقام (١) »

□

ومن الخطأ المتواتر ان يقال ان الشيوعية مذهب الطبقة العاملة أو الطبقة الفقيرة . لانها فى لبابها مذهب طباع وأخلاق.

---

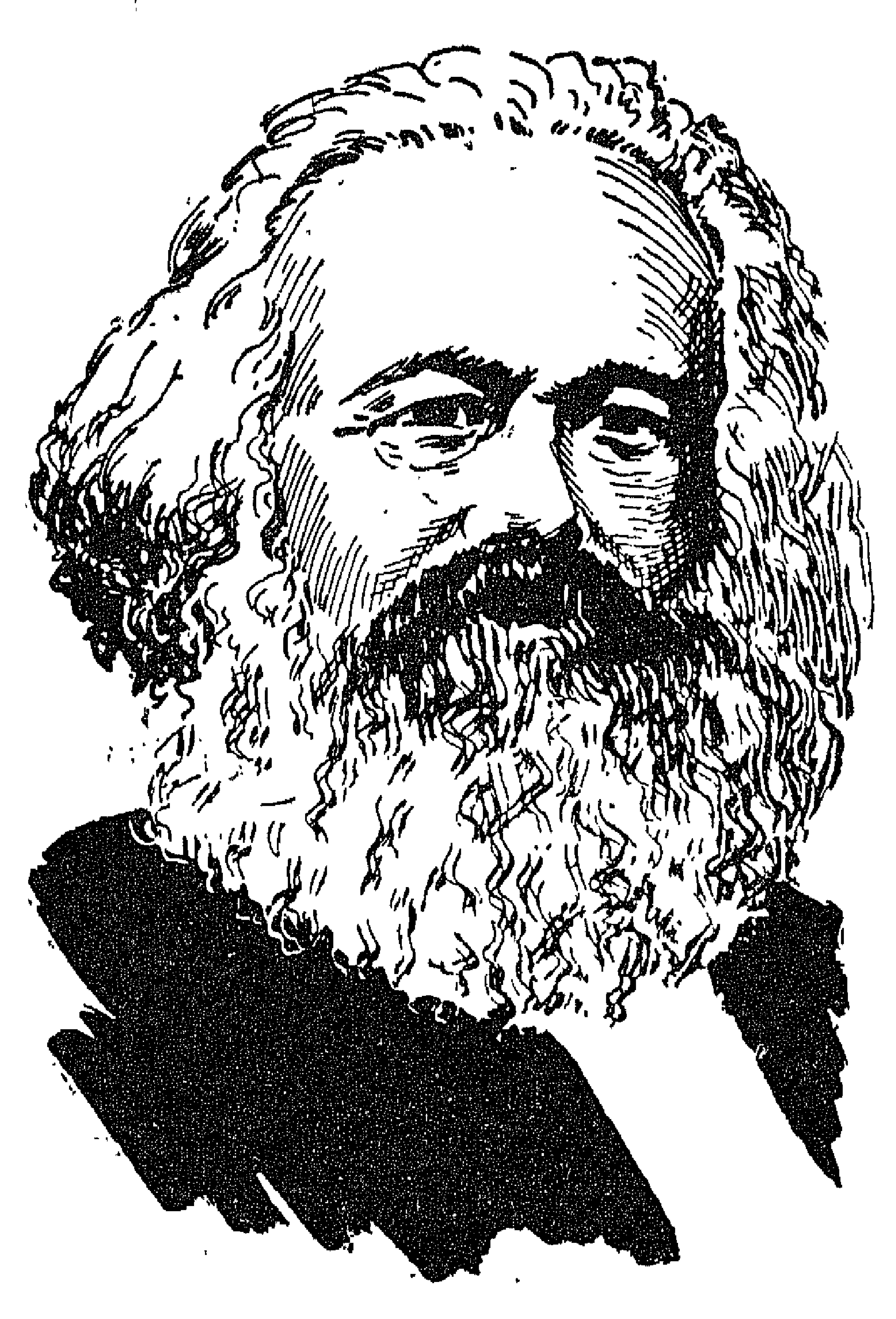
(١) من كتاب « أفيون الشعوب » للمؤلف

يتقبله كل من تلوثت طبائعه بلوثة اللؤم والانانية واسقط عن نفسه تبعة العمل ومؤنة التكليف وغلبت فيه الكراهيةوالحسد على محبة الخير للناس ، ولا يتقبل الشيوعية فقيرمحروم برئت نفسه من هذه اللوثة واستقر فى طبعه صدق الايمان بالجد والكفاية ، وانما يتقبلها المحروم اذا خامرته مع الحرمان رذيلة الحسد والكسل وسولت له الانانية أن يطمع فى جميع الحقوق ويسقط عن كاهله جميل الفروض والتكاليف ، ومن كان كذلك من الاغنياء فهو شيوعى واذ لم يكن من العاملين باليد أو من ضحايا الحرمان

وقد أسس الشيوعية اثنان لم يكونا من أبناء الطبقة العاملة ولا الطبقة الفقيرة . فكارل ماركس من الطبقة الوسطى وفردريك انجلز من الطبقة الغنية ، ولكنهما من المستعدين للشيوعية بالطباع والاخلاق ، وكلاهما نموذج للطبع الممسوخ فى اتجاهين متقابلين

كان كارل ماركس كما يقول أبوه « انانيا » لا يربطه بأسرته الا اعتقاده انها « مخلوقة من الذهب » تعطيه منه كل مايبتغيه، وكانت أمه تقول له انها تخشى أن يظل طوال عمره عالة عليها ، وكان صديقه وصفيه « انجلز » يصفه بجمود العاطفة وحب التعالى على أصحابه بهذا الجمود ، وعاش داعية « العمل » زهاء ثلاثين عاما لم يعمل فيها ما يكفى لقوته عاما أو بعض عام

ولم يكن انجلز عالة على الناس فى رزقه ولا احتاج أن يكون عالة عليهم فى أمر من أمور المعاش ، ولكنه كان عالة عليهم بطبع مؤنث مدخول يلقى زمامه لكل من عاشره ولو كان من النساء ، ويحب الثورة كما تحب الطبائع المؤنثة مناظر العنف وسورة الغضب والهياج



كارل ماركس

واقطاب الشيوعية من تلاميذ ماركس وانجلز يجذبهم الى « المذهب » طبع فاسد قبل أن يجذبهم اليها رزق محدود أو عيش مكدود . كان لينين فى طفولته يتلهى بكسر أجنحة الطير وتهشيم الحيوانات الاليفة ويقول فى شرح برنامجه مع مخالفيه أن أسلوبه معهم أسلوب السحق والإبادة ولا شأن له معهم بالمناقشة والاقناع ، ويكتب الى صاحبه جوركى فيقول ان فناء ثلث العالم الانسانى لا يعنيه وانما يعنيه أن تستقر الشيوعية على أساس

وكان ستالين مجرما مشوه الخلق لا يتورع أن يرمى مركبة البريد بالقذيفة المتفجرة ليسطو على مرتبات الموظفين المنقولة فيها ، ويقضى صباه بين التجسس للقيصر والحماسة للثورة ، ثم يتولى الحكم فيبيد من أساتذته وزملائه أضعاف من أبادهم القياصرة من آل رومانوف

□

وباب النجاة من وباء الشيوعية فيما نعتقد أنها مذهب لا يقوم على آرائه ولا على أخلاقه مجتمع صالح للبقاء والتعمير . اذ كانت فى صميمها « سلبية » هادمة لا يقام عليها بناء من مادتها ولا تصلح مادتها بحال من الاحوال للبناء ، ولو خلص المجتمع الروسى ـ بعد الثورة ـ للشيوعية على حقيقتها لما تماسك ولا انتظم خلال هذه السنين الاربعين ، وانما يتماسك المجتمع وينتظم هناك بمقدار المخالفة بينه وبين الشيوعية لا بمقدار المطابقة والتوفيق . فكل ما قامت الشيوعية لهدمه فهو موجود يتمكن مع الزمن ولا يؤذن بالزوال . ونظام « رأس المال » لم يتغير منه الا ان رءوس الاموال بحذافيرها قد اجتمعت فى أيدى الدولة فتولت ادارتها لتثبيت أقدامها على الرغم من

مشيئة كل ذى مشيئة فى البلاد ، ولا عبرة بمن يعيشــون ويموتون فى كل وطن منساقين منقادين بغير مشيئة للموافقة ولاللانكار . . فأمثال هؤلاء سواء فى طاعة السادةمن الشيوعيين والسادة من الفاشيين والنازيين وأصحاب رؤوس الاموال ، ولا يعدم نظام رأس المال طاعة كطاعتهم فى مجتمعات الحرية او مجتمعات الاستبداد

ولا مذهب الآن بعد الايغال فى الابتعاد عنه كلما استحال تطبيقه على مبادئه النظرية ، بل تقوم الدولة اليوم مقام المذهب وتود لو تخلصت منه ما استطاعت ، ولكنها لا تستطيع . لان بقاء المذهب هو حجة البقاء للدولة وحجة النظام الذى تستند اليه . وهذه هى « النقيضة » التى ستقضى على المـذهب او على الدولة فى النهاية ، فلا بقاء لهما مجتمعين

يقول الماركسيون ان نظام « راس المال » نظام تقضى عليه نقائضه التى لا تقبل التوفيق

ونقائض رأس المال لم تقض عليه حتى الآن ، ولكن الخلاص من نقائض الشيوعية يجشمها من متاعب الحيرة مالم يتجشم رأس المال

فالسلام فى العالم جو لا تعيش فيه الشيوعية لان طلب القرار وطلب الفتنة نقيضان

والسلام فى العالم حالة لا تستغنى عنها الدولة لانها لا تقوى على محاربة العالم بمذهب يفقد حجته فى بلادها، ولا يستطيع ان يخلق له حجة غالبة فى خارجها

لا امان مع السلام ولا بغير السلام

ولابد فى النهاية من زوال المذهب أو زوال الدولة

وقد زال نصف المذهب الى الآن ، وما بقى منـــه فالدولة حائرة فيه ! هل تتشبث به وتبقيه أو تتخلص منه وتلغيه ؟

قيصرية

تنسب القيصرية الى قياصرة الروس ، ويراد بهـا فى العرف السياسى كل حكم يتغلب فيه حب التسلط وتوسيع الدولة واعتبار السيادة الحكومية سيادة شخصية ينفرد بها صاحب الامر ولا يتقيد فيها بالشورى ولا بشعور المحكومين

وتوصف « روسيا الحمراء » بأنها دولة قيصرية لا تزال كما كانت فى أيام القياصرة على سبيل المشابهة بين العهدين فى جمع هذه الخلال ، ولكن التشبيه أحرى أن ينقلب عند المقارنة بين القيصرية والشيوعية ، فلا تكون القيصرية مضرب المثل فى مظاهر التسلط وتوسيع الملك واستبداد الحاكم بأمره فى شئون الدولة ، بل تكون الشيوعية هى مضرب المثل فى جميع هذه الخلال

ذلك أن الدولة القيصرية لم تبلغ فى عهد من عهودها المظلمة مبلغ الدولة الشيوعية فى كثرة البلاد التى تحكمها ورهبة الجبروت على محكوميها وإستطاعة الحاكم فيها أن يصنع بالإرواح والاموال مابدا له متسترا بنصوص القوانين أو مستبدا بالرأى جهرة غير مكترث لنص أو لقانون

فأوسع القياصرة ملكا لم يزد ملكه على نصف البلاد التى تشملها الدولة الشيوعية اليوم من أواسط اوربة الى شواطىء المحيط الهادى فى آسيا الشرقية ، ولا يدخل فيها تعداد البلاد التى يحاولون ان يحكموها ويتسلطوا على حكوماتها وشعوبها بالطوابير الخامسة والمؤامرات المتفق عليها بين حكام الكرملين وحكامها المحليين

وربما خضعت للقياصرة بلاد لا تميزها صفة من صفات الاستقلال السياسى التىاصطلح عليها فقهاء العلوم السياسية فى العصر الحديث ، فهى بلاد تابعة للقيصر خاضعة لعرشه وكفى . الا اننا اذا نظرنا للواقع رأينا أن الخانات الوطنيين فى تلك البلاد كانوا على نصيب من الاستقلال الواقعى اوفر من نصيب الامم الحديثة التى تخضع للدولة الشيوعية ، وان القيصر القديم لم يكن فى وسعه أن يتعرض لتفصيلات الحكم فى الشعوب التى تدين بالطاعة لخاناتها الوطنيين ، لانها فيما عدا الشئون الخارجية وحصة الاتاوة المفروضة على البلد لم تكن تشعر بحكومة غير حكومة الخان ، ولم يكن قيصر الروس عندها الا شبحا مرهوبا من بعيد

وعلى غير هذه الحالة تقوم العلاقة بين القيصرية الحديثة والبلاد التى خضعت لسلطانها ، على تعدد العناوين المصطلح عليها فى عرف فقهاء السياسة

وقد تنقسم البلاد الخاضعة للقيصرية الحديثة الىقسمين: قسم مستقل صاحب سيادة يسمى بالملحقات أو بالكواكب التى تدور فى فلك الدولة Satellites

وقسم آخر داخل فى اتحاد الجمهورية الشيوعية على درجات من الحكم الذاتى وحرية التصرف فى العلاقاتالخارجية

الا انها جميعا بين ملحقات وتوابع او ولايات لا تخرج من نطاق الحكم الذى يفرضهالكرملين ، ولا تعرف لها « شخصية قومية » بمعزل عن سياسة الكرملين فى وجهتها العامة ، ولا يستطيع أكبرها استقلالا أن يخالف تلك السياسة فى مسألة عالمية تقررت فيها خطة الكرملين أمام الدول الاخرى . . أما

ان تجترىء احدى الملحقات على مناقضة السياسة التى يمليها الكرملين فى المسائل العالمية فذلك من وراء الحسبان

وقد كشفت ثورة بولونيا وثورة المجر مدى الطغيان الذى تفرضه القيصرية الحديثة على أمم الملحقات المستقلة ، وبولونيا والمجر اوفرها نصيبا من الاستقلال فى عرف السياسة الدولية

فما هو الا أن بدرت من الشعب المجرى بوادر التذمر من طغيان القيصرية الشيوعية حتى صدر الامر الى حكومة المجر الوطنيـــة بالضرب على أيدى المتـــذمرين واعتقـــال قادة الحركة بغير هوادة وبغير تسويف ، وانتظر سادة الـكرملين هنيهة فلم يجدوا من الحكومة الوطنية ذلك النشاط الذى يريدونه فى قمع كل حركة تجترىء على الشكوى من طغيان القيصريةالخانق ، فصدر الامر فىهذه المرة الى الجيشالروسى بالزحف على عاصمة المجر واسقاط حكومة « ناجى » واقامة حكومة اخرى من صنائع الكرملين ، وتولى الجيش الاحمـر ما عجزت عنه الحكومة الوطنية من فظائع البطش والتنكيل والارهاب ، فامتلات الطرقات بجثث القتلى وامتلات مركبات السكة الحديد وسيارات النقل بالالوف من المعتقلين المبعدين الى الاطراف الروسية تنفيذا لخطة « النفى بالجملة » وتبديل السكان بالسكان من غير ابناء البلاد ، ومعظم هؤلاء المعتقلين شبان فيما دون العشرين ، يختـــارونهم من هذه السن « لتعليمهم » أو صبغهم بالصبغة الحمراء بين اندادهم مـن الروسيين ، فان لم يتيسر لهم أن يصبغوهم بالصبغة المطلوبة ابادوهم أو قطعوا ما بينهم وبين أوطانهم مدى الحياة .

ولم ينج من هذا البلاء الواصب الا من اعتصم بالجبـال ، واستطاع الهرب الى خارج البلاد ، ويبدو من عدد الهـاربين

أن الامة المجرية كلها كانت خليقة أن تلوذ بالهرب من بلادها لو انها أستطاعت . لان عدد الهاربين بلغ نحو ربع مليون من الرجال والشبان ، وهم بطبيعة الحال أقدر على الهرب من الشيوخ والنساء والاطفال ، وحسبك من بلاء لا نجاة منه للامة كلها بغير الهرب لو تستطيع !

□

واذا كانت القيصرية الحديثة قد استفادت فنا من فنون الحكم لم تمارسه القيصريات الغابرة فلا نرى أنها استفادت شيئا فى فن اخفاء المظالم وسترها بالمعاذير والتهم التى يتعلل بها الظالم للعدوان على المظلومين . فقد كان قياصرة الروس يسترون مظالمهم بألوان من المعاذير تقبل التصديق وتكسبهم تأييد « المحايدين » من أمة الروس والامم الاجنبية ، فكانوا يتعللون تارة بجشع اليهود وتارة بمؤامرات الفوضويين وتارة غير هذه وتلك بالغيرة على الكنيسة أو على شعائر الاماكن المقدسة ، ولم تكن تعوزهم فى مجزرة من المجازر علة من أمثال هذه العلل

أما القيصرية الحديثة فكل ماتفتقته الحيلة لها من أمثال هذه المعاذير أن ثورة العمال فى المناجم وثورة الشبان الناشئين من الخامسة عشرة الى العشرين انما هى تدبير من تدابير الاقطاع أو سماسرة رأس المال فى الخارج . وطالما اعتقل الروس الاقدمون أشخاصا معروفين بأسمائهم ومذاهبهم تلصق بهم تهمة الفوضوية أو الاحتكار أو غيرها من التهم التى يعتمدونها لتسويغ المجازر أو تسويغ الاهمال فى قمعها واتخاذ الحيطة لها قبل وقوعها ، أما القيصريون المحدثون فيذكرون

الدسيسة الاقطاعية الف مرة ولا يذكرون فى مرة منها فردا واحدا تحيق به التهمة ويدينه التحقيق ، ولو كان تحقيقا من قبيل تحقيقات المحاكم المعروفة فى حركات التطهير

واغرب التهم حقا أن يكون الناشىء من أبناء الخامسة عشرة الى العشرين ضحية للاقطاعية التى أخذت فى الزوال منذ الحرب العالمية الاولى ، وان يكون عمال المناجم معتصمين فى مناجمهم بتدبير أصحاب الاموال ، وأن تسقط حكومة وتقام حكومة والجيش الاحمر فى البلاد « يتفرج » كما يقال ولا يتدخل لاسقاط معارضيه واقامة صنائعه ومؤيديه

ويتم الشبه بين الحجج القيصرية وحجج الاستعمار فى هذه المعاذير كلما قابلنا بين دعواها ودعواهم على الشعوب التى تحاربهم بالثورة ويحاربونها باختلاق التهم عليها

فالامة المصرية ثارت على الاحتلال البريطانى بعد الحرب العالمية الاولى واستخدم المحتلون كل ما وسعهم من بطش فى قمع ثورتها ، ثم أحسوا حرجهم أمام العالم واحتاجوا الى العذر المقبول أمام شعوب الحضارة ، فبماذا اعتذروا ؟ اعتذروا بأنهم لا يقمعون ثورة قومية ولا حركة طبيعية ، ولكنهم يحبطون فتنة خبيثة دبرها الترك والالمان المنهزمون ، وعجزوا كما عجزت القيصرية الحمراء عن تقديم شخص واحد تجوز عليه تهمة التحريض على الفتنة من قبل الترك والالمان ، وكان من أغرب الدعاوى حقا ان يستطيع الترك والالمان المنهزمون أن يثيروا فى هزيمتهم فتنة لم يقدروا على اثارتها وهم منتصرون ، ولكنها ليست باغرب من دعوى الاقطاعية على عمال المناجم أو ناشئة الجيل الذى لم يشهد فى بلاد المجر دولة من دول الاقطاع

على أن أسباب الثورة فى المجر وبولونيا وبلاد الملحقات والتوابع فى القارة الاوربية اثبت وأقوى من ان يجدى فيها الانكار او تجدى فيها براعة الدعاة فى فن الاخفاء والاختلاق

أسبابها أن القيصرية الشيوعية تحاول جهدها أن تقبض بكلتا يديها على ازمة السياسة الاقتصادية فى كل مكان تحرص على النفوذ فيه ، وماذا تجدى الدعاية أو الاختلاق فى انكار هذه الحقيقة ؟

هل تنكر القيصرية الشيوعية قواعد مذهبها الاولى والاخيرة .. هل تنكر ايمانها بأن السيطرة السياسية تابعة للسيطرة الاقتصادية ؟ وهل هى — مع ايمانها بهذا — تطمع فى بقاء نفوذها حيث تريد النفوذ دون أن تملك أزمة الثروة والاقتصاد؟ هل يوافق مذهبها فى أساسه ان تترك توجيه الثروة لغيرها فى مجتمع من مجتمعات ملحقاتها وتوابعها ؟

فالتبرؤ من التحكم فى ثروات الامم دعوى تقبل من كل قيصرية قبل أن تقبل من القيصرية الشيوعية

وقد تكذب الاخبار والاشاعات ولكن هذه الحقيقة لا تكذب ولا تقبل الانكار

فاما أن تكون القيصرية الشيوعية مسيطرة على أزمةالثروة فى البلد ، واما ان ترحل عنه ولا تهتم بأمره ، وكل ما يقال غير ذلك فهو انكار لمذهب القوم من الاساس ، وليس قصاراه انه انكار لخبر أو تكذيب لدعاية

وكل ما يذاع من اخبار تلك البلاد المغلقة فى وجه العالم فهو تطبيق طبيعى للمذهب الذى يقوم على تسخير الوسائل السياسية للوسائل الاقتصادية

وبجدع الانف تفرط الشيوعية القيصرية فى زمام من ازمة



لينين

الاقتصاد تستطيع أن تقبض عليه فى بلد تعمل على ابقاء نفوذها فيه

ولهذا فعلت فعل المستعمرين فى معاملة شعوب الملحقات والتوابع فأخذتهم بذنب النازية التى كانت مسلطة عليهم برغم انوفهم ، وتعللت بمبادىء الغرامات والتعويضات لاستيفاء حصتها من شعوب اوربة الوسطى واوربة الشرقية التى كانت خاضعة للنازيين ، ولم تستوف حصتها ـ بالبداهة ـ من هتلر وجورنج وجوبلز وهيس وريبنتروب ، ولكنها استوفتها من الشعوب التى تبكى عليها من ظلم السيادة الاجنبية وظلم الاقطاع

وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية بنزع المصانع والآلات الضخمة من البلاد المغلوبة التى حقت عليها الغرامة أو التعويض ، ولم تعد الى تلك البلاد شيئا مما نزعته الا على شريطة « الادارة المشتركة» التى يتساوى فيها الروس والوطنيون ويتولاها مدير يرضى عنه الكرملين ، ولن يكون هذا المدير الا اداة مطواعا لامر سادته وأصحاب الفضل عليه فى ترشيحه وتغليب كلمته على معارضيه ، ولن يكون « وطنيا » محليا فى سياسته ولو كان من الوطنيين المحليين ، وله عذر حاضر يحمى به وجهه أمام ناقديه من قومه وغير قومه ، وهو عذر الانفة من الوطنية التى تقدم العصبية على مصالح الطبقة ومصالح الحزب الشيوعى أو الاحزاب الشيوعية ، وكلها ينبغى أن تكون على راى سواء فى جميع الاوطان

□

وعلى الجملة تتلخص العلاقة بين القيصرية الشيوعية واتباعها

فى كلمتين : الاستغلال والاكراه ، فلا يخضع شعب من الشعوب لطغيان القيصرية الا وهو عاجز عن المقـــاومة الحكوميــة او الشعبية ، ولا يخف طغيـان القيصرية فى بلد من البلدان الا بمقدار الخوف من مقاومته وانتقاضه ، ولا حساب هنا للحرية ولا لرعاية الحقوق

وتقول الدعاية هنا ماتقول فالواقع أن قيام السلطة القيصرية على القمع والاكراه بين الامم التابعة لها أمر ملموس فى مجامع الدول لا تجدى فيه المكابرة ولا تلفيق المعاذير . فان الاستعمار الذى يتكلم عنه الشيوعيون كما يتكلمون عن الغول أو الافعوان لم يرهب اتباعه كما ترهب القيصرية الحمراء اتباعها فى أهم التوابع والملحقات ، وأيسر مقارنة هنا بين مواقف كندا والهند وزيلاندة الجديدة ومواقف بولونيا والمجر وفنلندة تدل على الفارق البعيد بين طغيان القيصرية الشيوعية وطغيان الاستعمار المنعوت باستعمار رأس المال . فبينما تجترىء كندا مثلا على منابذة انجلترا والوقوف فى صف معارضيها فى هيئة الامم المتحدة ننظر الى الدول التابعة للقيصرية الشيوعية فلا نرى دولة منها تجترىء على « الحياد » فى مسألة من المســـــائل العالمية التى تفترق فيها الخطط والسياسات ، وقل منها من تجترىء على اجتناب التصويت عند احتدام الخلاف

واذا كان هذا نصيب الدولة ذات « الـكيان السياسى فليس من المعقول أن تكون الشعوب التى لا كيان لها أعظـم نصيب من استقلال الرأى وحرية الارادة ، فان هذه الشعوب « تندمج » فى الاتحاد الشيوعى ولا يزيد رأيها فيه على صوت واحد من أصوات الكثرة الغالبة فى القرارات النهائية ، وهى على هذا لا تملك صوتها الواحد مستقلا عن طغيان الكرملين ،

لان دساتير الشعوب المحلية تنص على المساواة فى الحقوق السياسية بين الروس وأبناء تلك الشعوب . ومعنى ذلك ان الحقوق كلها للروس فى الحكومات المحلية ، لانهم أعضاء فى حزب واحد منظم يقابلهم شتيت من الوطنيين المتفرقين لايقبل أحدهم فى الحزب ما لم يكن مرضيا عنه مضمون الموافقةقبل انتظامه فيه ، ومتى كان المرجع الاخير الى حزب منتظم فى الادارة المحلية يؤيده حزب منتظم فى الدولة الحاكمة فلاحرية ولا استقلال ولا وجود للصوت الذى يطلب الحرية والاستقلال لانه سرعان ما يتعرض لتهمة الخيانة والانشقاق حين تبدر منه المخالفة فى مسألة واحدة ثم تتكرر فى مسألتين او ثلاث ، واذا كان أقطاب المذهب من أمثال مولوتوف ومالنكوف وشبيلوف يتعرضون لهذه التهمة فى المجلس الاعلى فى بلاد الروس نفسها فما بالك بالعضو التركمانى المسكين اذا اجترا على مخالفة خطة متفق عليها بين سادة الكرملين ؟ وما ضمانه من الدستور او الرأى العام اذا كان هذا الضمان معدوما فى مجالس الاقطاب والاعلام ؟

ان بناء قنطرة فى بلاد البشكير يحتاج الى التصديق من سادة الكرملين ، وان مد انابيب الماء أو سكة « الترولى » فى نالشيك Nalchick لا يتم بغير الموافقة من أولئك السادة ، ولا يتكلف القوم مداراة ذلك لانه من المنشورات الرسمية فى الصحف الكبرى ، وما اشرنا اليه هنا منشور فى تاريخ واحد من صحيفتين كبيرتين هما صحيفة برافدا Pravda وازفستيا Izvestia الرسميتين « ١٨ يونية سنة ١٩٥٠ »

ويقاس على حقوق الحكم الذاتى فى مد السكك والانابيب حق الامة فى حرية التعليم ، أوحرية الاعتقاد أو حرية الاتصال

بالبلاد الخارجية . فانها كلها مكفولة بمثل هذه الكفالة التى لا محصل لها فى النهاية الا انها كفالة حروف وكفالة نفاق

هذه قيصرية الشيوعية ، وتلك قيصرية الطغاة المستبدين. اذا اختلفتا فانما تختلفان لان القيصرية الشيوعية تستبيح كل منكر تتعلل له بحقوق الشعب وتستهين فيه بجميع المحظورات ، ولكن القيصرية الغابرة كانت تعرف المحظورات وتحتال لها بالفتاوى الشرعية كلما اندفعت فيها بغير روية ، وقلما كانت قادرة على اختراع تلك الفتاوى لكل محظور



واستبداد

والقيصرية فى حكم الرعايا الوطنيين ليست بأهون ولا أرحم من القيصرية فى حكم الشعوب الغربية من بلاد الملحقات أو أعضاء الاتحاد ، فهذه وتلك قائمة على الاستبداد المطلق من قيود الشريعة والاخلاق ، فلا قيود لها غير قيود الضرورة القاهرة التى لا يقدر عليها ولاة الامور

ان الروسيين الذين أبادهم الحزب الشيوعى يعدون بالملايين، كان يكفى أن يكون أحـــدهم من ملاك الارض ليباح دمه بغير محاكمة وبغير سؤال ، وكان يكفى فى بعض الاحوال أن يأكل الفلاح وآله ذبيحة من البقر أو الضأن ليستباح دمه ويقـال عنه انه معطل لمشروع المزارع الجماعية ، يتعمـــد أن يذبح الماشية لكيلا تؤخذ منه للمشاركة فى مشروع من تلك المشروعات بل كان يكفى لاستباحة الدم والحرية ما هو أيسر من هـذه التهم الكبار كتهمة الكسل فى الزرع أو التقصـير فى تسليـم الحصة المفروضة على المحصول ، وجريمة هؤلاء جميعا تدخل فى عداد جرائم التعطيل والتثبيط التى تعاقب بالاعدام

ولا يقل ضحايا الحزب الشيوعى عن عشرين مليونا ذهبوا ضحية للقتل الجزاف او للحرمان والجوع او النفى والتشريد فى مجاهل سيبيريا ومعاقل قطب الشمال . ويبلغ من استخفاف دعاة الثورة الحمراء بدم الانسان انهم يحسبون كلمة الثـورة مسوغا كافيا لاستباحة دماء الملايين كأنها الوسيلة الوحيـــدة لنجاح ثورتهم أو اجراء هذه التجربة فى سبيل النجاح ، ويقول

لينين بغير مواربة فى خطاب منه الى الكاتب جوركى ان ابادة ثلث الجنس البشرى ليس بذى بال ، وانما المهم ان تنجح الشيوعية باية حال

لكنه عذر لا يستر طبيعة الضراوة بالشر فى نفوس هؤلاء الطغاة ، فان اعضاء الحزب انفسهم لا يسلم المقهور منهم من شرور المنتصرين عليهم فى التنازع على مناصب الجاه والجبروت وقد عمل الشيوعيون على الثورة فى عهود ثلاثة من قياصرة آل رومانوف ، فلم يقتل القياصرة الثلاثة عشر الذين قتلهم ستالين وحده من كبار الزعماء بله الصغار المجهولين ، وخليفة ستالين نفسه هو الذى يقول : « انه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر ثمانية وتسعون اعتقلوا واعدموا رميا بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على الخصوص .. ولم يكن هذا مصير اعضاء اللجنة المركزية فحسب ، ولكنه كان مصير اكثر المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر .. فمن ١٩٦٦ مندوبا كانوا يملكون حق الاشتراك فى الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية القى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة »

ومضى ستالين فلم يسلم كبار الزعماء من استبداد القادرين على الاستبداد ، ولم يتهم احد من هؤلاء الزعماء بتهمة اقل خطرا من تهمة الخيانة العظمى وعداوة الشعب والمروق من مبادىء الثورة واشباه هذه التهم التى لا تقل العقوبة فى احداها عن الموت مع التشهير والتحقير ، ولا يتطلب الامر لاثبات هذه التهم واستحقاق العقوبة عليها أكثر من الاقتراع مع القلة فى مجلس من مجالس الحزب العليا أو فى هيئة من

هيئات الصناعة التنفيذية ، فاذا قال تسعة ان زيادة المصنوع من الجرارات غير لازمة وقال عشرة انها لازمة لا غنى عنها ، فالتسعة خونة معادون للشعب مارقون على عقيدة الثورة ، دليل ادانتهم انهم أقل في العدد بواحد من زملائهم المخالفين ، واذا كان من رأى مولوتوف وملنكوف وكاجنوفتش وشيبلوف واثنين أو ثلاثة معهم ان السياسة الخارجية تفرط في اللين او تفرط في الشدة وكان من رأى الفريق الآخر أنهم مخطئون فهم مخطئون خطأ الأبد الذى لا علاج له غير الموت البدنى أو الموت المدنى ما دام القائلون بخطئهم يزيدون عليهم بواحد او اثنين

ولو كان هذا الاختلاف محرما على الكبار والصغار فى أول عهد الثورة لجاز أن يقال أن الخوف على الثورة يبيح ما لا يباح من فرط الشدة والقسوة جمعا للشمل ومنعا للشقاق ، ولكنه يحرم بعد اربعين سنة ، ويستكثر على أكبر القادة الزعماء من ذوى المبادىء والآراء ، وما يحرم على زعيم نيف على الستين وهو فى خدمة الثورة والدولة وارتفع فيهما الى مكان القيادة منذ ثلاثين سنة لن يكون مباحا لفرد من الافراد محجوب عن أسرار الدولة وبرامجها فى السر والعلانية ، مفروض عليه أن يصدق كل اتهام وان يؤيد كل انتقام ، مادام المتهم من المنكوبين المنكودين والمنتقم من الظافرين المتحكمين

وسواء صدق هؤلاء الظافرون أو كذبوا فى اتهامهم لخصومهم فالثورة على الحالين أحقر ماعرف الناس من ثورات فى تواريخ الاقدمين والمحدثين

فليس أحقر من ثورة يخون مبادئها مئات من زعمائها متطوعين بغير داع للخيانة وهم فى مراكز القيادة والرعاية

وليس أحقر من ثورة تدين المئات من زعمائها ظلما وتفترى عليهم تهم الخيانة واحدا بعد واحد وهم مستسلمون بغير نصير ولا شفيع

وليس أحقر من استبداد يجرى مجراه على هذه الوتيرة بعد أربعين سنة من قيام الثورة سواء جرى فيها لضرورة أو لغير ضرورة

فالثورة التى تضطر الى الاستبداد ولا تستغنى عنه بعد أربعين سنة هى كارثة بلاء واصب وليست بحركة اصلاح مأمول

والثورة التى تصطنع هذا الاستبداد وتقترف آثامه وموبقاته لغير ضرورة هى مؤامرة اجرام لا أمان فيها للمحكومين ولا للحكام ..

ولا أمان فى نهاية الامر لمن يصاب بهذا الاستبداد او لمن يشهد المصاب بعد المصاب وهو معفى من نكباته لهوان شأنه على سادته ومسخريه ، فكل من هلك أو سلم فهو من ضحاياه، ولكن الهالكين يخرجون بالموت من سلطانه الغاشم وتبقى الامة « الناجية » بمصاب أفدح من مصاب الهالكين ، لانها تبقى وهى ملغاة العقول والضمائر تصدق عن فئة من أبنائها بعد فئة انهم ابطال الشرف والنجدة وانهم شياطين الخيانة والدمار ، فان لم تصدق هذا فهى لا تبالى ما تصدق وماتكذب لانها لا تحفل العدل والظلم ولا تعرف الغضب للمظلوم ولا الغضب على الظالم ، ولا تعدو أن تكون كالماشية التى تساق منها البهيمة بعد البهيمة للذبح وهى لا تسأل عن شىء غير الجوع والظمأ ، او تكون من بنى الانسان فى حال كحال السجناء من أراذل الخلق لا يحسبون للحرية ولا للسمعة حسابا مادام فى السجن مسكن وملبس وغذاء

وعنصرية

فى القارة الاسيوية بضع عشرة أمة صغيرة يتراوح عددها من مليون الى خمســــة عشر مليونا أو نحو ذلك ، وكلهم فى الاصــل ترك طورانيون يدينون بالاسلام على المذهب السنى ويتكلمون لهجات من اللغة التركية يفهمونها جميعــا بكتــابة واحدة ولا يصعب على أحدهم أن يتفاهم بها مع أبناء الاقاليم الاخرى ، ولا شك أنها تتوحد كما توحدت الفرنســـية أو الايطالية بين لهجــات الاقاليم فى بلادها ، اذا اســتخدمت فى الـكتابة والاحاديث العامة كما تستخدم اللغات القومية

ولـكن القيصرية الشيــوعية ــ باسم رعاية الحقـــوق واحترام الاستقلال الذاتى لتلك الشعوب تمزقها فى حدودها وانظمة حكمها أجزاء مبعثرة لايجتمع جار منهــا على جار ، ولا يقبل من احدها أن يذكر له أصلا جامعا ينتمون اليــــه باللغة والسلالة

« ... والعمل على محو معالم القومية فى هــذه الشعوب وقطع كل علاقة بينها وبين تراث اللغةوالتاريخ ــ فيها ــ هو زبدة المبادىء التى تعلنها قرارات الحزب وتذيعها الصـــحف الرسمية ويشرحها فى الـــكتب والمنشورات علماؤها المجندون لتنفيذ برامجها الثقافية . وما من كتــاب يؤذن له بالخروج من المطبعة فى أرجاء روسيا الا وهو بمثـــابة الامر الحـكومى المفروغ من تحضيره ومراجعتــه وتطبيقـــه على مشروعات السنين كما تقررها نظم الدولة بعد أن تفرض العقوبةالصارمة على من يخالفها

« ولقد سلك المستعمرون الحمر مسلك جميع المستعمرين فى تخدير ضحاياهم بالوعود الكاذبة وتغريرهم بزخارف الاباطيل ومحرجات الايمان على نية الحنث بها من اللحظة الاولى . فأعلنوا فى أوائل أيام الانقلاب الشيوعى بلاغا طنانا وجهوا فيه الخطاب الى الشعوب الاسيوية الاسلامية بصفة خاصة وأكدوا فيه لكل شعب منها أنه آمن بعد اليوم على حريته التامة فى معتقداته وشعائره وعاداته ومقومات العرف واللغة بين عشيرته وأهله ، وآذنوه بزوال الحكم القيصرى وزوال عهد الحجر والطغيان بزواله الى غير رجعة ، وما هو الا ان هدات الثائرة واستقرت الدولة الجديدة فى مراكزها حتى عادت القيصرية فى أشنع صورها وحل الخوف محل الامان فى كل وعد من وعود الحرية والطمأنينة ، وقال قائل من أمناء تلك الشعوب المهاجرين فى حديث يمتزج بالسخر الاليم : « ان المخدوعين المساكين كانوا اذا أرادوا أن يعرفوا مواضع المصادرة المنتظرة رجعوا الى بقية الشعائر التى وعدوهم باحترامها فعلموا انها هى الهدف المقصود بالضربة التالية ... » ولم يكن هذا الساخر مازحا فيما وصفه من تقدير قومه وان ساقه فى مساق التهكم والسخرية . فان الشعائر المقدسة قد أصبحت فى الواقع مرادفة للجرائم المحرمة على تلك الشعوب ... حتى الشكوى من القيصرية فى أبان طغيانها أصبحت دليلا على التشبث بالنعرة القومية ، فوجب اتهام المجاهرين بها والقضاء على دعاتها . وتساوى فى هذا الاضطهاد جميع الشعوب الاسلامية من كان منهم فى أقاليم أوربية ومن كان منهم فى أقاليم آسيا الغربية أو آسيا الوسطى . فصدر الامر فى القرم بتقسيم اللغة التى يتكلمها

القرميون الى ثلاث لهجات وضبط كتابتها على حسب الابجدية الروسية لا على حسب الابجدية العربية ، ونادى وزير المعارف ـ الكسندروفتش ـ فى المؤتمر الشيوعى السابع عشر بوجوب تطهير هذه اللهجات وادخال الكلمات الروسية فى موضع الكلمات المحذوفة منها ، وشاعت سياسة التشتيت والتمزيق فى اللهجات ، بل فى فروع اللهجات ، ليتيسر محوها وتصعيب استخدامها فى مقاصد العلم والثقافة وتعجيزها عن الثبات ـ من ثم ـ أمام اللغة الروسية التى احترفتها جميعا فى معاهد الدراسة ودواوين الحكومة ومنشورات المصالح والمجالس السياسية . وقد كان ستون مليونا من أبناء الشعوب الاسيوية يقرأون صحيفة «ترجمان» التى كان يصدرها المصلح الكبير اسماعيل غصبرالى المعروف فى القاهرة ، وكانوا على اختلاف لهجاتهم يفهمونها ويتداولونها ، فأمر المستعمرون الحمر ـ أنصار حرية الشعوب ـ بمصادرة كل صحيفة من قبيلها واعتبارها داعية الى النكسة والرجعية والتشبث بالنعرة الوطنية وصادروا مع مصادرتها كل سيرة من سير البطولة يتغنى بها أبناء الشعوب المغلوبة . لان ثورة الابطال الوطنيين فى وجه القياصرة انما كانت ثورة على الامة الروسية التى ساقت الحضارة والمعرفة الى تلك الشعوب ..

« وحاقت اللعنة بالادباء الذين يذكرون أوطانهم بالثناء ويفخرون بالانتماء اليها ، فاتهم الشاعر التركمانى جمعة مرادوف بالنكسة الرجعية لانه نظم قصيدة عنوانها « بلدى تركمانستان » عابتها صحيفة الحزب « تركمانسكايا اسكرا » فى عددها الصادر فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر

سنة ١٩٥١ وقالت فى انتقاد الشاعر: «انه لايختص التركمان السوفيتية بالكلام بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان ويصورها كأنها جنة على الارض ... وانما ينبغى على الشاعر أن يتحدث عن تركمان السوفيتية لانها احدى الجمهوريات الاخوات فى داخل الاتحاد السوفييتى العظيم »

« وسيقت الامم غير الروسية الى عقد مؤتمر تعلن فيه ولاءها للدولة المستعمرة وسخطها على دعاةالتجديد والاحياء فى الحركة الوطنيـــة ، فخطب باجيروف نائب الرئيس بذلك المؤتمر قائلا : « ان رئاسة اتحاد الكتاب السوفيتيين رأت حوالى سنة ١٩٤٨ أن تعقد فىموسكو اجتماعالتنظيم المناقشة فى مسألة القومية التى ينتمى اليها الكتاب السابقون ومؤلفاتهم غير مستثنية من ذلك أمثـــال ذلك الكتاب الرجعى الذي ينطوى على عداوة الشعب وتسميم الافكار بسموم الجامعة الاسلامية نعنى كتاب ديدى كركوت Dedakorkyt .

ولكن هذا الرأى قد تقرر رفضه فى لجنـــة الحزب المركزية وعرفنا بفضل هذه اللجنة طوايا الكتاب السيئة وان نميط اللثام عن حقيقة الرجعية

« وتعقب النقاد الرسميون أناشـــيد البطولة والوطنيـــة فى الامم الخاضعة للدولة المستعمرة فوصموها بخبث النزعةوسوء الطوية وقال باجيروف المتقدم ذكره فى عدد يوليو سنة ١٩٥٠ من مجلة بولشفيك وهو يتحدث عن « شامل » بطل القوقاز الذي اشتهر بثورته على القيصر قبيلمنتصف القرن التاسع عشر : « اننا اذا أردنا أن نفهم فــكرة صـــميمة عن حركة شامل هذه فلنذكر أنها كانت حركة دينية وانها اشد اعراض الجامعة الاسلامية نكسة وعداوة

وقالت مجلة كومونست فى عدد يناير سنة ١٩٥٣ : « ان المؤلف جعفروف الذى كان يظن سنة ١٩٤٤ أن الحركات القومية التى ثارت على روسيا خلال سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩١٦ كانت من حركات التحرر الوطنى قد عاد فأدرك خطأه وكتب فى سنة ١٩٥٢ انها كانت حركات اقطاعية متعصبة »

... ومضت المجلة تقول : « ان هذا الكتاب ـ اى كتاب جعفروف ـ يتعمق فى البحث عن جذور العلاقة الودية بين امم آسيا الوسطى وبين الامة الروسية العظيمة ويلفت النظر على نحو خاص الى الدلالة التقدمية التى يدل عليها ضم هذه الامم الى الحظيرة الروسية ... فان هذا الضم قد اتاح لها فرصة المساهمة فى ثقافة روسيا العظيمة .

« وصحيفة الدولة ـ برافدا ـ تردد هذه الاقوال وتصرح فى السابع من اكتوبر سنة ١٩٥٢ ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تمنع سموم الجامعة الاسلامية ... ثم تصرح فى الثالث عشر من فبراير سنة ١٩٥٣ بأن المؤرخ سليمانوف مضلل كاذب لانه يزعم أن الشعوب التركية تجمعها ثقافة مشتركة ، وتصرح صحيفة الدولة الاخرى ـ ازفستيا ـ قبل ذلك فى الثانى من سبتمبر سنة ١٩٥١ ببطلان الدعوة التى يجنح اليها مجمع العلوم ببلاد الازبك لاحياء كتب السلف الاسلامية وادخار مخطوطاتها ومتفرقاتها

« وقد بدأت هذه السياسة منذ الايام الاولى التى افاق فيها سادة الكرملين من شواغل حربهم الداخلية ، ولكنهم كانوا يراوغون فى تنفيذها بين المصانعة والخديعة أو بين القمع والحيلة ، حتى كشفوا القناع عنها حوالى سنة ١٩٣٠ فدفعوا اذنابهم الى المؤتمر الذى سموه بالمؤتمر التاريخى فى سمرقند

ليعلنوا البراءة من الوحدة القومية ... أو ليعلنوا بعبـــارة أخرى أنهم ـ أبناء آسيا الوسطى ـ اشتات متفرقون وليسوا بالعنصر الواحد فى الاصل ولا فى اللغة ولا فى التراث القـديم وقد اجتمع المؤتمر سنة ١٩٣٥ وأصـــدر قراره ـ العلمى ـ بوجوب تصحيح النظر الى تلك الوحدة المزعومة بين القازاق والتركمان والجرغيز والازابكة وجيرانهم الآخرين .. ولسنا ندرى كيف يطمع دعاة الاستعمار الاحمر فى تصديق هـذه الاضحوكة عن اناس طائعين مختارين يشـــدون رحالهم الى بلد واحد ليسوغوا للغاصب تمزيقهم وانكار اصولهم وابتلاعهم بعد ذلك اشتاتا مبعثرين

« ويجوز تصديق هذه الاضحوكة لو كانت المسألة هنـــا مسألة مبدأ فى المذهب الماركسى يطبقونه على جميع الاوطان وبين جميع الشعوب ... او لو كان الشـــعور الوطنى على مذهبهم شعورا بغيضا لديهم يحرمونه على الامم الحاكمة كما يحرمونه على الامم المحكومة ، ولـكن الواقع فى الامبراطورية الروسية على نقيض ذلك من طرفيه . فان العصبية الوطنية مفروضـــة مشـــكورة فى ورسيا حيث تكون مذمومة مدحورة فى البلاد الخاضعة لسلطانها ، وكلما اشتد ولاة الامر فى تحريم العناية باللغة والتراث القومى فى قطر من الاقطار الاســيوية قابلوا ذلك بالحماسة الروسية للعنصر واللغة والثقـــافة فى اضيق حدودها ، ولم يصنع النازيون والفاشيون فى تهوسهم المرذول بالمفاخر المحتكرة للجنس الآرى والمآثر الموقوفة على الجرمان واسلافهم دون سواهم من أمم العالم بعض ما صنعه دعاة العظمة السلافية ـ بل عظمة الجنس الروسى على حدة ـ بين سائر أجناس السلاف الحاضرين والغابرين . فانهم ردوا

الى هذا الجنس فضلا واحدا لا منازع لهم فيه ، يدعون به السبق الى كل اختراع والانفراد بكل فكرة قبل انتشارها بين بلاد الحضارة الحديثة

« ففى سنة ١٩٤٠ منح مجلس الوزراء جائزة الدولة للمؤرخ رباكوف Reybecov لانه زعم فى كتابه عن صناعات روسيا القديمة ان روسيا كانت مصدر المعارف الصناعية التى انتقلت منها الى الغرب واستفادت منها بولونية وبوهيمية وما جاورهما

« وصحيفة الدولة تحيى قصة كاترين الثانية فى الصور المتحركة فتعيد قصيدة شاعرها الذى وصف ذلك العهد بأنه عهد الظفر القاصف والغلبة الجانحة والعبقرية الروسية فى ميادين القتال . وقادة روسيا الذين خدموا القياصرة تعاد ذكراهم المئوية او الخمسينية لكل مناسبة عارضة أو لغير مناسبة على الاطلاق غير أرقام التواريخ فيشيد كاتبهم شاتاجين Shatagin فى شهر مايو سنة ١٩٥٠ بذكرى انقضاء مائة وخمسين سنة على وفاة القائد سفيروف Suverov ويحيى هذه الذكرى الخالدة بمقال مسهب استغرق أكثر من عشر صفحات فى العدد التاسع من مجلة البولشفيك « والدولة هى التى تتولى نشر كتاب كوفاليف Kovalev الذى يعيد معظم المخترعات الى سابقة روسية ، ويقول فيه ان لومنسوف الروسى سبق لافوازيه الى قانون بقاء المادة والطاقة ، وأن بتروف سبق جميع العلماء العالميين فى كشوف الصناعة الكهربية وأن ليتز وياكوبى سبقا المخترعين والكاشفين الى استطلاع اسرار المغنطيسية الكهربية وان بلزنوف سبق واطس الى اختراع القاطرات البخارية وان يابلخوف ولوديجين

سبقا المخترعين الى الاهتداء لنور الـكهرباء بأكثر من ثلاثين سنة وان بوبوف هو مخترع جهاز الاذاعة حوالى سنة١٨٩٥ وأن برويجين سبق الفلكيين الى رصد حركات المذنبات ، وأن لوباشفسكى هو صاحب الآراء الحديثة التى جدد بها علوم الرياضة وأنشأ بها هندسة تنافس هندسة اقليدس القديمة، وان علماء الروس بالايجاز قد سبقوا جميعالعلماء والمخترعين فى ميادين الصناعة العصرية والعلم الحديث

« وكلما اجتمع مؤتمر المعلمين الذى يوحى بسياسةالتعليم الى المدارس كافة فى أنحاء الامبراطورية نادى بوجوب تعليم الدروس جميعا باللغة الروسية ... وصحيفتهم المخصصة لاذاعة هذه السياسة هى التى نشرت خلاصة هذه القـرارات فى السابع من شهر ابريل سنة ١٩٥٤ فقـالت فى الفصـــل الافتتاحى « ان الاكرانيين وأبناء روســيا البيضاء واللاتفيين والاستونيين والقازاق والازابكة والشراكسة والارمن والتتر الخ ألخ .. يدرسون بجد وشغف لغة أختهم الـكبرى الامة الروسية العظيمة

وهذه الصحيفة هى التى نشرت فى الثـلاثين من شهر يونيو سنة ١٩٤٣ برنامج التعليم فقالت انه من اللازم فى السنوات الباكرة أن يتعلم الاطفـــال محبــة كل ماهو وطنى من تربة الوطن ... وأنتغرس فى نفوســهم الفكرة التى تجلب دموع الفرح الى أعينهم عند الاشارة الى هذه الامم الكبرى وتسرى بالقشعريرة الىالدم كلما مربالذهن خاطر يهددنا بفقدها (١) »

□

فالمبادىء التى يروجها سماسرة الاســـتعمار الاحمر غن

(١) مقدمة كتاب الاستعمار الاقتصادى من سلسلة الناقوس

الوطنية البغيضة والعنصرية البرجوازية واشباه هذه المحفوظات المبتذلة انما هي بضاعة تصدير لمحو جميع العناصر وبقاء عنصر واحد يسودها ويرغمها على التغنى بمفاخره والاشمئزاز من مفاخرها ، وهذه سياسة عنصرية لم تبلغ مبلغها سياسة مرسومة فى عهد من عهود الاستعمار مما سبقت به دول العصور الوسطى أو لحقت به دول الاستعمار الحديث الى القرن العشرين

فالمستعمرون حتى هذا القرن . لم يعملوا ولا حاولوا أن يعملوا على ابتلاع السلالات وهضمها فى سلالة واحدة تحيط بالامم المغلوبة وتخرجها عن أصولها وتقتلعها من جذورها وتسوقها الى عقد المؤتمرات ووضع برامج التدريس لهجر لغاتها ودفن تراثها التنكرى لماضيها ومستقبلها ، وغاية ما ترامى اليه أمل المستعمرين فى محو معالم القومية بين الشعوب الخاضعة لهم انهم كانوا يجعلونهم بالمنزلة الثانية فيما يتعلق بالحكم وولاية الامور العامة . فأما هذه السياسة التى تجعل القومية جريمة ومفخرة فى وقت واحد وتفرض على المغلوب أن يتغنى بمفاخر سادته ويزرى بمفاخر قومه فتلك خاصة من خواص هذه القيصرية الحمراء لم يسبقها سابق فى تاريخ الاستعمار

مع العالم

الشيوعيـــة دولة ومذهب ، أو دولة ودعوة ، ولا تبرأ سياسة الدولة ـ ذات الدعوة ـ من دسائس النفاق والمراوغة فهى اذا كفت عن الدعوة فى الامم الاخرى خانت مبـادئها وتنكرت لرسالتها وتراءت فى ظاهرها بغير ما تضمره فى باطنها

وهى اذا نشرت دعوتها لتشجيع الفتنة بين شعوب الدول الاخرى خانت قضية السلام واصطنعت الغش فى قواعـــد المعاملة الخارجية بينها وبين حلفائها واعدائها

ولابد من باطن غير الظاهر فى الحالتين ، ولابد من فقدان الثقة فى سياسة الداخل والخارج ، وهى أساس كل علاقة صالحة ..

□

وقد تقرر بالتجربة المتطاولة أن « الموقع الجغرافى » يتحكم فى سياسة الدولة فتمضى فى وجهة واحدة ، وان تغيرت فيها النظم والحكومات ، ويسمون هـــذا الرأى فى علم السياســة الحديث « بالجيوبولتيك » أو السياسة الجغرافية

ويصدق هذا الرأى على وجهة السياسة الروسية من عهد قياصرة رومانوف الى عهد قياصرة الشيوعيين ، فكل ماطمع فيه آل رومانوف من الفتوح أو منـاطق النفوذ فهو مطمع للساسة الشيوعيين ، وقـد كان آل رومانوف يقولون انهم يريدون فتح الآستانة لاســـتعادة كنيسة « ايا صـــوفيا » واقصاء آل عثمان عن عاصمة الـكنيسة الشرقية القديمة .

فانقضى عهد آل عثمان وقام بالامر فى الآستانة وموسكو اناس ينظرون الى الدين بغير نظرة القياصرة والخلفاء ، ولكن سادة الكرملين يطلبون الآستانة ويطلبون البوسفوروالدردنيل كما كان يطلبها قياصرة الحرب وقيصر السلام

سياسة الامس وسياسة اليوم فى الدولة الروسية على اتفاق فى الوجهة العامة ، وتزيد سياسة اليوم بالدعوة الى مذهب الدولة والاتجاه بها الى اشاعة القلق والخراب فى كل مكان ولا سيما بلاد المشرق التى يتطلع اليها « الرفقاء » الحمر كما تطلع اليها من قبلهم أصحاب التيجان

ولنضرب مثلا من أمثلة كثيرة بمسألة معروفة فى البلاد الشرقية وهى مسألة البترول

أى غرض لسياسة الشيوعية فيها غير سياسة الشغب والتخريب ؟

هل تقوم هذه السياسة على مصلحة العالم ؟

هل تقوم على مصالح البلاد الشرقية ؟ هل تريد ان تعطل انتاج البترول من جميع الابار ؟ هل تريد أن تستولى هى على الآبار بعد تعطيلها ؟ هل تريد ان تبقى تلك الآبار مدفونة أو فى حكم المدفونة بين أناس يجهلون صناعاتها ولا يملكون أدواتها ؟..

ليس فى غرض من هذه الاغراض مايدخل فى تقدير دولة ، ولكنها أغراض تدخل فى تقدير الدعاة الذين يعملون للقلق والتخريب ولا يبالون فى سبيلهما مصلحةالعالم ولا مصالح البلاد الشرقية ، فان مصلحة العالم ومصالح البلاد انشرقية لا تتحقق باهمال البترول فى آباره ، والدولة الروسية لاتترك

البترول فى بلادها مهدرا ولا تقترح وسيلة لاستخراجه من البلاد الخارجية أصلح من وسائله الحاضرة ، وهذه سياسة واحدة من سياسات كثيرة تجرى عليها الشيوعية ولا نتيجة لها غير القلق والفساد

واذا كان فى العدوان الدولى ماهو شر من طمع الاستعمار فذاك هو العدوان الذى يستوفى الطمع ويزيد عليه سعاية السوء لاثارة النقمة وأشاعة البغضاء بين الامم . فلا يزال بكيد الساسة والدعاة يلبى مطالب الدولة بالطمع ويلبى مطالب الدعوة بالنقمة والخراب

وقد يدل « الموقع الجغرافى » ايضا على طبيعة الشيوعية فى عملها بالقوة وعملها بالاقناع ، فمما يدل على أن عملها بالقوة اكبر من عملها بالاقناع أن « سلطتها » أنجح ماتكون فى البلاد التى تصل اليها بالسلاح والمال أو معونة المرافق المالية . فان سلطتها فى الهند اضعف من سلطتها فى الصين وكوريا الشمالية ، وسلطتها فى الصين وكوريا الشمالية أضعف من سلطتها فى البلاد الاسيوية الاسلامية التى تقع الى جوارها ، ولا توجد اسباب غير اسباب السلاح والمال تجعل الشعوب المتساوية فى الثقافة وطبقة المعيشة متفاوتة الاثر بالنسبة اليها ، كما تتفاوت أسبانيا وبلاد البلقان ، أو كما تتفاوت أمريكا الجنوبية وآسيا الوسطى ، او كما تتفاوت جميع البلاد المجاورة لمصادر القوة الروسية وجميع البلاد التى تبتعد عن جوارها

ولاكثر من سبب واحد كانت الشعوب الاسلامية فى آسيا الوسطى أوفر من سواها قسمة من وطأة الدولة والدعوة فى آونة واحدة . فهنا يعمل الجوار الجغرافى والجوار التاريخى عملين متسابقين فى تعجيل الاخضاع ونشر المذهب والسلطة

بكل ما تملكه الدولة والدعوة من قوة وتاثير ، فان قسمة البلاد الاسلامية الاسيوية من « عناية » الشيوعية تزداد بازدياد العداوة المتأصلة بين أجناس المغول والسلاف وازدياد وقائع الفتح والاستعمار من أقدم عهود القياصرة ، وليس مما يضعفها على الزمن اشتداد المقاومة التى يلقاها المستعمرون عامة من اتباع الديانة الاسلامية ، وليس مما يضعفها فى الزمن الحديث خاصة ان الاسلام دين يشتمل على نظام اجتماعى وفكرة خلقية تنافس الفلسفة المادية فى كل معرض من معارض المعيشة ومقاييس الاخلاق

واذا صح فى أمر الشيوعية مع الامم جميعا انها لا تقبل التوسط على سلام فهو أصح من ذلك بين الشيوعية والاسلام . فلا بقاء للشيوعية فى بلاد تدين بالاسلام ولا بقاء للاسلام فى بلاد تدين بالشيوعية ، وكل سياسة تقوم على دعوة السلام والوفاق بين الشيوعية واصحاب العقائد المخالفة لها فهى دعوة قائمة على نفاق وعلى تربص كمين كالتربص بين الاعداء المتسترين

« ان معسكر الشيوعية لا يأمن على نفسه مع بقاء الديمقراطية ، وان معسكر الديمقراطية لا يامن على نفسه مع بقاء الشيوعية ، وكلاهما على حذر من الاخر لا خفاء به ولا نكران له ولا شك فيه .

« ولكنهما مع ذلك مختلفان ابعد اختلاف

« فاذا علمت أن أحدا يعقد العزيمة على هدم دارى واهدار دمى فتربصت له فكلانا على هذا متربص بصاحبه ناظر اليه نظرة الحذر والعدوان ولكننا لا نلام على خطأ واحد ولا

نطالب بعمل واحد عند من يريد الانصـــاف أو ينظر نظرة السواء ..

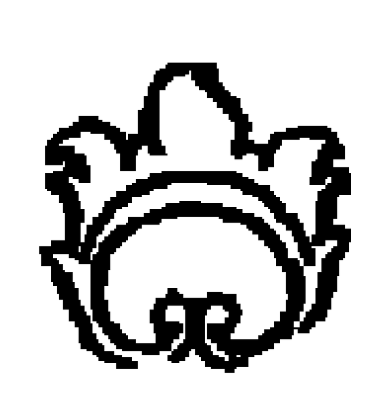
« وقيام الشيوعية على هـــدم المجتمعات التى تخالفهـا وايمانها بأن الخير كل الخير فى تفكيك أوصالها وتعجيل زوالها حقيقتان لا تقبلان المغالطة ولا يكون المتجاهل لهما الا مغرضا من البداءة وهو يدارى الغرض متشيعا جد التشيـــع تحت سريان العدل والمساواة

« واذا قال الشيوعى انه يؤمن (بالتعايش السلمى) فمعنى ذلك انه يكف عن تنفيذ مذهبه أو انه يرتاب فى صـدقه ولا يؤمن ضربة لازب بانهدام المجتمعات العالمية فى وقت قريب ، ولا امل له فى نجاح الدعوة من قبله مالم يكن قد عدل حقا عن الـكيد لمن يعايشهم معايشة سلميـة والتربص بهم تربص الوارث بمن يترقب موته ، ويعامله على هـذا الاساس ، وما هو بأساس صالح للمعايشة السلمية بل هو أساس المعـاملة بين من يعيش ومن يموت ، أو بين الوارث والموروث المطموع فيه

« ونحن لا نستبعد أن يكون المؤمنون بالشيوعية قد شكوا فى قواعد المذهب التى يبنون عليها نبوءاتهم عن مصير مجتمعات الامم الى الدمار العاجل . فان لم تبلغ شكوكهم هـذا المبلغ فلعلهم قد شكوا فى سرعة الوقت الذى يتم فيه الدمار المحتوم ورتبوا على التمهل فى الانتظار سياسة توافقه غير السياسة التى تتعجل الوقعة الحاسمة بين المعسكرين ، ولـكن قضية السلام العالمى لاتناط بهذه الشكوك فى قواعد المذهب ولا فى طول الامد المقدور لتحقيق نبوءاته ، وانما تناط قضـــية السلام العالمى بقوة العوامل التى تتعلق به وترجوه ، كما تناط بخشية الخطر من اهوال الحرب وســوء عقبـــاها مع قلة

جدواها . فاذا انتصرت هذه العوامل ونجحت فى المقــاومة والمطاولة ــ جاز أن يتبدل خلال هذه الفترة كثير من القواعد والعقائد وان تلوح للمشكلات المعقدة وجوه من الحل المرضى ميسورة فى ظلال التعاون والسلام (١) »

والامر ــ بعد ــ رهين برجحان هذا الرجاء فى المستقبل ، ولــكنه من العبث أن تنخدع الامم بدعوة السلام من قبــل الشيوعيين ، فان دعوة السلام نفاق من كل نظام يعلق رجاءه فى المستقبل على تخريب المجتمعات القائمة ، وأضيع الآمال فى « التعايش السلمى » أمل يقوم على سياسة لم تعــرف « التعايش السلمى » بين أقطابها سنة واحدة منذ قامت الدولة الشيوعية ، فلا علاج لاختلاف الرأى بينهم الا أن يقتل القادر منهم من يعجزون عن مقاومته ، ويتعقبهم بالتهمة والمــذمة وهم فى جوف التراب



---

(١) مقدمة المؤلف لكتاب التعاون الاقتصادى من سلسلة الناقوس

أكثر من دعوة
وأكثر من دولة

من ابرز معالم الطريق التى تشير الى مصير الشيوعية وضع « الصين الشعبية » دعوة ودولة بعد الحرب العالمية الثانية ..

فعلى حسب العناوين اللفظية تعد الصين الشعبية فتحا عظيما للشيوعية وامتدادا واسعا لدعوتها ولدولتها ، لانها ادخلت فى المذهب أربعمائة مليون انسان وضمت الى الدولة « ملحقا » سياسيا حربيا يتبعها فى الازمات وفى الحروب

وعلى حسب النتيجة العملية تعتبر الصين على وضعها الجديد هدما للدعوة الشيوعية ومنافسا شديد الخطر للدولة الروسية لا يؤمن جواره لانه جوار نظيرين لا يطول العهد بالتناظر بينهما على وئام

ان ثورة الصين تقوم على الاعتراف بالملكية الارضية ، وعلى توزيع الارض بين الاسر من صغار الفلاحين ، ومستقبلها اذا نجحت مستقبل أمة تؤمن بالاسرة وتحافظ على مبدأ الملك فى أثبت أشكاله وأشدها استعصاء على التغيير . وما من احد فى الصين يعتقد انه تتلمذ فى هذه الثورة للشيوعية الروسية أو شيوعية سواها . لان مبادئها تقررت فى الصين قبل ثورة الروس الاخيرة بعدة سنوات ، ودستورها مشروع فى برنامج « سن ياتسن » الذى يقول منذ نشر مبادئه الثلاثة من الديمقراطية والوطنية والاشتراكية : « أما الاشتراكية فبرنامجى لها ما يأتى : اولا ـ تقسيم الارض على اساس النسبية . وقد حاولت أيام مقامى بنانكنج اذ كنت اتولى

الرئاسة الموقتة ان انفذ هـذا البرنامج فلم استطع لانني لم افهم » ...

وهو الذي يقول في شرح من شروحه الكثيرة لهذه الاشتراكية : « ان المشكلات الاجتماعية تنشأ من التفاوت بين الغني والفقير . فماذا نعني بالتفاوت او قلة المساواة ؟ لقد كان الفارق موجودا بين الغني والفقير في الازمنة الغابرة ولكنه لم يكن فارقا حاسما كما نراه اليوم . اذ يملك الغني الارض كلها ولا يبقى للفقير حتى القليل منها . وعلة هـذا التفاوت اختلاف اساليب الانتاج . فقد كان قاطع الخشب مثلا يستخدم الفئوس والمدى وما اليها ولكن المكنات تحل محل هذه الادوات في العصر الحاضر ويستطاع الحصول على محصول كبير بعمل بدني قليل . ولنضرب مثلا آخر من اعمال الزراعة ، ففي الازمنة الغابرة كان المعول كله في هـذا المجال على الجهود الانسانية ، ثم نشأت المحاريث التي تجرها الخيل والبقر فزادت سرعة العمل وقلت الجهود البدنية . ثم استخدمت القوة الالية اليوم في اوربة وامريكا فاصبح من المستطاع حرث الفي فدان وزيادة في اليوم الواحد وامكن الاستغناء عن الخيل والبقر ، فنجم من هـذه الحالة فارق هائل يعبر عنه بنسبة الف الى واحد ، فاذا انتقلنا من هذه الامثلة الى وسائل المواصلات رأينا ان الوسائل الحديثة كالبواخر والسكك الحديدية قد جعلت النسبة اكثر من الف الى واحد عند المقابلة بين هذه القوة والقوة الانسانية

« ولنتكلم اولا عن اشتراكية الارض . فنظام الارض مختلف بين اوربا وامريكا ، ولا يزال نظـام الاقطاع قائما في انجلترا من حيث اصبحت الارض مملوكة للاحاد في الولايات المتحدة ..

« الا ان برنامجى يدعو الى التقسيم النسبى أتقاء لشرور المستقبل التى بدرت اليوم بوادرها . ولنضرب مثلا بما حدث تحت أعيننا منذ انشىء المجلس البلدى فى مدينة كانتون . فان المواصلات تقدمت واخذت أثمان الارض على الجسر وعند مزدحم السكان ترتفع ويباع « المتر » الواحد بعشرات الالوف من الريالات ، وهـــذه كلها يملـكها آحاد يعيشـــون بجهود الآخرين ، وان نظام الارض القديم فى الصـــين يوافق بعض الموافقة نظام التقسيمات النسبية . فاذا أردنا أن نطبق هذا النظام وجبت ملاحظة هذه الشروط وهى فرض الضريبـــة على حسب قيمة الارض ، والتعويض على حسب القيمـــة العرفية . وقد اتبع التقسيم على ثلاث درجات الى اليوم فى البلاد الصينية ، ولـكن قيمة الارض لم تكن فيما مضى بهذا الارتفاع لنقص وسائل المواصلات وأدوات الصناعة . فلما تقدمت المواصلات والادوات الصناعية مع بقـاء التقسيمات العتيقة نجم من ذلك ارتفاع غير متناسب مع قيمة الارض .. وعلى هذا ينبغى اذا أردنا اتقاء شرور هذه الحالة ان نفرض الضرائب بنسبة واحد فى المائة من قيمة الارض .. أما مسألة راس المال فقد نشرت أخيرا كتابا عن تنمية الصين الدوليـة بحثت فيه مسألة الاستعانة برؤس الاموال الاجنبية لترقية صناعة الصين وتجارتها .. »

فالثورة فى الصين دعوة لم تصدر من المذهب الشيـــوعى ولم تطبق على حسب مبادئه ، ولم يكن للمــذهب الشيوعى أثر فيها غير أثر « التسمية » بعد شيوعها ، فلو لم توجد فى روسيا دعوة شـيوعية لقـــامت دعوة « سن ياتسن » على قواعدها وجرى تطبيقها كما شرحها مؤسسها قبـــل تيفه

وخمسين سنة واعاد شرحها مرة بعد مرة عقب نشوب الثورة في روسيا دون أن يغير حرفا واحدا من برنامجه الاول

وليس الفارق بين الدعوتين من الفوارق التى تزول أو تضيق بعد التنفيذ والتطبيق . فان كثرة المنتفعين بحق الملكية الزراعية لايهدر هذا الحق ولا يحول دون سريانه على أنواع من الملكيات الاخرى . وقد يكون الملك الذى ينتفع به مليون فى امة تعد بمئات الملايين مهددا بالزوال أو التغيير ، ولكن الامة التى كلها من الملاك لا يوجد فيها من يثور على حق الملك الا أن يكون من طلاب الزيادة فيه

فالصين لاتواجه امم العالم بمذهب يناقض نظاما من نظمها الاقتصادية فى أساسه ، وثورتها لاتسمى « بالشيوعية » الا من قبيل التسميات المرتجلة التى تنساق مع ألفاظ العناوين ، ووجود الدعوتين منفصل فى النشأة ، منفصل فى الاساس ، منفصل فى النتيجة ، لعله أقرب الى التناقض منه الى التعاون والاتفاق . .

على أن التعاون بين الدولتين أعسر — على طول الامد — من التعاون بين الدعوتين .

فنحن لانفهم شيئا من عبر الماضى والحاضر ان لم نفهم ان التنافس حتم بين الدولتين الكبيرتين فى جوار واحد ، وربما كان أهون من ذلك خطرا ، وحتما ، لو تنافستا مع اختلاف الدعوتين ، فأما أن تطيق دولة تناهز مائتى مليون أن تخلق الى جانبها دولة تناهز ضعفيها عددا ولا تقل عنهما موردا وعدة وثروة فهذا من خوارق العادات فيما كان وفيما سيكون

وكل مابدا حتى الان من سياسة الدولتين يتمشى مع « تقاليد » الماضى قبل ثورة الروس وثورة الصين . فلما

اتفقت الدولتان على معاهدة (٥ فبراير سنة ١٩٥٠) كان الخطر المشترك عندهما هو ذلك الخطر « التقليدى » الذى عرفته روسيا والصين فى حروب الشرق الاقصى من عهـــد القياصرة وأبناء السماء ، فلاتتقيد احداهما بالمعونةالعسكرية للاخرى الا اذا وقع عليها الاعتداء من اليابان على انفراد أو فى حلف من الاحلاف ، ولو ابرمت هذه المعاهـدة فى فبراير سنة ١٩٠٠ لمـا نظرت فىالسياسةالدولية الى عداوةمشتركة غير عداوة اليابان ومن يحاربون فى صف اليابان !

□

ومن الفوارق التى ترتبط بنظام الدولة فى روسيا والصين ان الولاء للمذهب الماركسى شرط من شروط الولاء للدولة فى جميع الاقطار التابعة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية ، يعاقب الخارج على المذهب بعقوبة الخيانة العظمى ولا يقبل منه عذر من اعذار حرية الرأىاذا اجترأ على مناقضةمبدأ من مبادىء المادية الثنائية فى أصولها أو فروعها

وهذه قداسة لا يعرفها الصينيون لمـذهب كارل ماركس ولا لمذهب من المذاهب الفلسفية « المستوردة » من الخارج كما كانوا يقولون عنها فى مطلع الثورة منـــذ أواخـر القرن التاسع عشر ، وقد يكون « الصينى » ماديا ثنائيا مطلعا على فلسفة كارل ماركس فى مصادرها وشروحها ، ولكنه لايخرج بذلك من وراثته العريقة التى توحى اليه ان حكمة الصين هى حكمة الاولين والآخرين ، وأن واردات الغرب فى العلم كوارداتها فى الصناعة ، تؤخذ بما لها من قيمة موقوتة ولا تحسب من تراث الحكمة الخالد فى امة تتوارث ادب السلوك وهـــداية

الحياة من الاسلاف الى الاعقاب ، وقد يناقض طبيعة الصينى ــ أصلا ــ أن ينطوى على « ايمــــان عام » يلازمه فى الرأى والشعور ومسائل السياسة ومسائل المعيشة ، فهو يعرف الايمان « مفرقا » ولا يعرفه جملة واحدة محتويا لجميع عناصر الرأى والعقيدة

وفى شهر فبراير (سنة ١٩٥٧) تكشفت فى الصين وثيقة هامة كتبهـــا « ماوتسى تونج » الى مجلس الحكومة الاعلى « ليعرض فيها خلاصة تجارب الثورة خلال سنواتها الثمان. فقال فى تلك الوثيقة « ان الماركسيـــة الآن ليست من الازياء القومية الشائعة » وان السيـــاسة الصينية يجب أن تعنى بنشر المبادىء والنظريات ولـكن على غير الاسلوب الخشن العتيق ، بل يجب على الساسة أن يسلموا وجود الاختلافات المقبلة ما داموا يعتقدون أنها اختلافات وليست باضداد يقف بعضها لبعض بالمرصاد

ويرى ماوتسى تونج فى تلك الوثيقة أن الحكومة يحق لها أن تتولى تنظيم الاعمال القومية فى خطوطها الواسعة دون أن تلغى حق المجتمـــع فى تنظيم شـــئونه ولا حق الجمـــاهير فى الابتداع والانشاء

ولا يمنع الرئيس الصينى وجود الطوائف والجماعات فى الامة الواحدة ، ولـكنه يقسمها فى مجموعها الى قســـمين متقابلين : أحدهما تتفق مصـــالحه ومصالح الامة ، والآخــر ينفرد بمصلحة خاصة تستغل المصالح العامة لمنافعها الضارة بغيرها ، ولا مانع من تعدد الطوائف مع اتفـــاقها فى الوجهة العامة ، ولـكنها اذا اختلفت وتناقضت لم يكن للمشكلة من حل غير الثورة الجانحة وتعذر تدبيرها على أساس التعاون بين الحكومة والمحكومين

ولا نخال أن وثيقة من وثائق الاتهام فى روسيا قد اشتملت على « مروق » أشد من هذا المروق من دستور الشيوعية المقدس فى عرف الماركسيين ، ولا ان « المدعى العام » هناك بحاجة الى سند أقوى من هذا السند للمطالبة بتوقيع اشد العقاب على اسوأ الخيانات

وسوف تقترب الدعوات وتبتعد فى المستقبل الى اليمين والى اليسار ، ولكن الدعوة الروسية والدعوة الصينية تقتربان الى التنافس على كسب الميدان العالمى وتحرص كل منهما على كسب استقلالها والاحتفاظ بكيانها فى وقت واحد، وفى هذه الحالة لاتغتبط الدعوة بأن تصبح دعوتين ولا الدولة بان تقوم الى جانبها دولة تشاركها فى رسالتها ، فان دعوة واحدة فى هذه الحالة أسلم من دعوتين ودولة واحدة اقوى من دولتين !

□

ان تجربة الصين أضخم التجارب فى أمم العالم لضخامة البلاد التى وقعت فيها ، ولكنها ليست بادل تلك التجارب على الخلل المتأصل فى جذور المذهب الماركسى ولا على العوائق العملية التى تحول دون تطبيقه فى مجتمع من مجتمعات العصر الحاضر فى المشرق والمغرب فربما كانت تجربة يوغسلافيا على صغرها ــ بالقياس الى الصين ــ أدل على ذلك الخلل وأولى منها بالتذكر فى معرض البحث عن عيوب المذهب وبطلان نظرياته وتقديراته

تلك التجربة التى تسمى الآن « بالتيتية » منسوبة الى « تيتو » زعيم يوغسلافيا ــ قد سبقت تجربة الصين بالزمن

وبالدلالة . وقد نشأت فى أول أمرها تمردا على استبداد الرفيق ستالين وتمردا على استبداد المذهب فى شئون الملكية الزراعية واجور العمال والموظفين ، ثم ابتعدت من المذهب طورا بعد طور وسنة بعد سنة حتى اقترنت فى الزمن الاخير بالثورة الصريحة على أصول المذهب وزعمائه المؤسسين لقواعده من ماركس الى لنين . فليس موضع الانتقاد عند فلاسفة يوغسلافيا الماديين ان فلسفة ماركس ولنين تحتاج الى التعديل عند التطبيق أو أن التطبيق ينتهى بها الى التصحيح فى طور من اطوارها المرجوة فى المستقبل ، ولكن الانتقاد اليوم قائم على هدم المذهب من أصول قواعده وعلى القبول الجازم بأنه ينشىء الطبقة المستغلة ولا يزيلها أو يزحزحها عن مكانها . . وشارح هذه الفلسفة الحديثة ملوفان دجيلاس Milovan Djilas وزير الدعوة السابق فى بلاده ينقل تعريف الملكية من القانون الرومانى القديم وهو انه « حق الحيازة والتمتع والتصرف » ويقول أن هذا التعريف يصدق حرفا حرفا على حق الطبقة المسيطرة على بلاد الشيوعيين فى الاستيلاء على مرافق الدولة واحتكار رؤس أموالها مع التمتع بها والتصرف فيها كما يفعل المالك بملكه ، وله كتاب مطول باسم الطبقة الجديدة يقيم الادلة على صدق هذا الرأى بالاحصاءات والشواهد المستمدة من مصادر الحكومات والدواوين والمصانع والشركات ، ولا يعتقد المؤلف ان المذهب الماركسى يصلح لعمل نافع فى علاج مشكلات العصر الا ان يكون هذا العمل تعجيلا منظما لحركة التصنيع فى البلاد التى تخلفت فيها الصناعة وغلبت عليها عيوب البداوة فى أساليب الزراعة ونظم الاقطاع

الجزء الثانى

والاستعمار

* مبدأ الاستعمار
* أسباب الاستعمار
* سباق الاستعمار
* أنواع المستعمرات
* آداب الاستعمار
* نهاية الاستعمار
* النموذج الجديد
* وبعد

مبدأ الاستعمار

ان تنازع الامم لتغليب أمة على أمة وتسخير الاضعف منها في خدمة الاقوى بالانفس والاموال ـ ديدن قديم فى التاريخ

وهو قديم أيضا فى التنازع بين الشرق والغرب منذ عرفت هذه التفرقة فى تقسيم الامم الى شرقية وغربية ، ولاشك أن هذا التنازع قديم سابق لعصور التاريخ . لان البقايا الثابتة التى بقيت لنا مما قبل التاريخ تدل عليه ، ومن هذه البقايا وجود اللغات الهندية الجرمانية التى صدرت من أرومة واحدة سكنت زمنا فى البقاع الوسطى بين القارتين الاسيوية والافريقية ثم اتجهت طائفة منها شرقا وجنوبا واتجهت طائفة أخرى غربا وشمالا فى مواقع شتى تمتد من اقصى الهند الى أقصى الجزر البريطانية . فهذه الاصول الهندية الجرمانية هى فى الوقت نفسه أصول التنازع والتغالب على رقعة واحدة من الارض لم تتسع للنازلين بها من سلالة واحدة أو من عصبة لغوية واحدة ، ولا تكون هذه أول سلالة فى هذه الرقعة ، مع قيام السلالات من حولها بين سامية وكوشية وطورانية وغيرها من الفروع أو الاصول المجهولة

فالتنازع اذن قديم بين الامم ، وهو قديم كذلك بين الشرقيين والغربيين أو بين من كانوا يوما من الايام شرقيين أو غربيين ..

ولكن ليس هذا هو الاستعمار الذى يعنيه المؤرخ الحديث منذ القرن الثامن عشر ، لان الاستعمار عند المؤرخ الحديث

انما يطلق على حركة اجماعية ترمى الى غرض مشترك تحقيقا لدعوى واحدة تدعيها امم متعددة فى فترة محدودة ، لهـــا عواملها وأسبابها التى لم تجتمع قط لحركة اجماعيـــة من قبلها . فلا استعمار بهذا المعنى قبل الاستعمار المعروف فى القرون الاخيرة ، بل لم توجد بين الامم حركات اجماعية من قديم الزمن ، فكل ماظهر من هذه الحركات فى التاريخ فانما ظهر بعد عصور التاريخ القديم ، ولم يكن فى الوسع أن يظهر قديما لانه مرتبط بمرحلة من مراحل التاريخ العالمى لا يتهيأ لها أن توجد قبل الاوان

وهذه الحركات الاجماعية فى العصور المتاخرة متــداخلة مشتبكة لا تنفصل احداها من الاخرى بفاصل حاسم يقطع الصلة بينها ، بل لا تخلو حركة اليوم كل الخلو من عوارض امسها وغدها على صورة واضحة لا التباس فيهـــا . فمن كتب عن حركة اجماعيـــة فى القرن العشرين لم يتيسر له أن يفهمها حق فهمها دون الرجوع الى الحركة الاجماعية التى مهدت لها فى القرن الثـــامن عشر ومهدت لهـــا قبل ذلك فى القرون الماضية

وحركة الاستعمار احدى هذه الحركات ، لانفهمهـــا حق فهمها مالم نرجع قبلها الى حركة الحروب الصليبية ، ولعلها أول حركة اجماعية قامت بدعوى واحدة فى التاريخ العالمى منذ وعيناه والممنا بالجوهرى من دعاواه ودواعيه

وينبغى أن نفرق بين الحركات الاجماعية التى تحدث من جراء التحالف بين دول عدة وبين الحركات الاجماعيـــة التى تحدث من شيوع دعوى واحدة بين أمم متفرقة ، فانمايحدث ذلك التحالف لانه خطة من خطط القتال فى أقدم الميـــادين

واحدتها على السواء ، ولا تحدث الحركة الاجماعية للاتفاق فى دعوى واحدة الا لانها مرحلة فى التـــاريخ العالمى شاملة للحكومات والشعوب مرتبطة بميادين القتال وبغير تلك الميادين

والحروب الصليبية هى أكبر الحركات الاجماعيـــة بين الغرب والشرق ، ولعلها أولها ومصدرها

والاستعمار هو الحركة الاجماعية التى تليهـــا وتستعيد الكثير من دعاواها ودواعيها

لابد لهذه الحركات من « دعوى » مشتركة او من حجـــة عامة ، وهذا هو الفارق بينها وبين الحركات التى لاترجع الى شىء غير توازن القوى واتمام العدة للهجوم أو الدفاع

وقلما خلت دعوى من أثر يبقى فيها من آثار سابقتها كما تقدم ، وقد تجتمع الدعويان فى وقت واحد الى حين

وقد كانت دعوى الاســـتعمار قائمة على « رسالة الرجل الابيض » أو على الامانة التى اضطلعت بها الحضارة الاوربية لاصلاح أمم العالم

وما كان فى وسع القوم أن يخترعوا هـــذه الدعوى لو لم تسبقها دعوى مثلها من القارة الاوربية ترمى الى غاية كهـــذه الغاية فى زمانها ونعنى بها دعوى الحروب الصليبية

ولقد مضى اليوم على آخر الحملات الصليبية نحو خمسة قرون ولا يمكن أن يقال انها اختفت من ميادين السياسة أو الدعاية ، ولا تزال لها رجعات تتردد طوعا أو كرها فى تصريحات الساسة وتعليقات المؤرخين ، كما تتردد حينـــا بعد حين فى مساعى الجماعات والآحاد .

يقول المؤرخ الهندى سردار بانيكار Panikkar فى كتابه « آسيا والسيطرة الغربية » بعد تمهيـــد وجيز عن عصر

الامتداد الاوربى : « انه من الضرورى لفهم الدافـــع الدينى الاقتصادى السياسى وراء هذا الحلم وهذا المسعى أن نعرض بايجاز لبعض النزعات فى التـــاريخ الاوربى خـلال القرنين السابقين . فمن عهد صلاح الدين الذى استرد بيت المقدس من الصليبيين أصبح الاسلام من قاعدته فى مصر منظمة قوية حائلة بين القارتين الاوربية والاسيوية ، وانتهت الى غير طائل تلك الانفجارات الملتهبة من الحماسة والغـيرة والحركة التى جاشت بالعالم المسيحى فى الحملات الصليبية الثلاث ، واذا بالنصر الذى أحرزه صلاح الدين كما يبدو من وجهة النظر التاريخية أثناء العصور المتأخرة قد أصـــبح عاملا من أقوى العوامل الحاسمة فى تاريخ العالم ووطد السيادة الاسلامية على سواحل سورية ومصر لعدة قرون مقبلة ، ولم تخف هذه الحقيقة عن ساسة الغرب كما يؤخذ من توجيه الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ ــ ١٢٢١) الى مصر نفسها »

الى أن يقول : « واذا كانت البرتغال قد أصبحت وريثة (جنوا) فى الرحلات البحرية فقد أصبحت كذلك فى القرن الخامس عشر وريثة المسيحية فى وجه الاســلام ، ولم تسر روح الحملة الصليبية الى الجزيرة الاندلسـية وحسب بل أضافت اليها وقدة من الحمية والنشاط فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . اذ بينما كان الاسلام فى رأى الممالك الغربية الاخرى خطرا بعيدا كان هــذا الخطر مرهوبا مخيفا على الابواب فى رأى أبناء قشتالة وأراغون وبرتغال »

وليست هذه وجهة نظر هندية شرقية أوحاها الشــعور الهندى الشرقى ، الى كاتب يمثلها من ناحية القومية ، بل هى وجهة نظر المؤرخ حينما نظر الى الموقف من جميع نواحيه .

وفى كتاب « أوربةوالدنيا الواسعة بين سنتى ١٤١٥ و١٧١٥ » يقول المؤلف الاستاذ بارى Parry : « ان خطة البرتغاليين نحو الشرق لم تكن قط مجرد خطة من خطط التزاحم على التجارة ، وما خطر لهم قط أن يضاربوا العرب والبنادقة بأسعار يخفضونها وبضائع من الابازير يغرقون بها الاسواق الاوربية ، وما كان فى وسعهم أن يفعلوا ذلك لو ارادوا . وانما كان الموقف بين البرتغاليين والعرب من البداية موقف قتال عنيف ملأته العصبية بالمرارة

ويقول وليام كارلتون من جامعة فلوريدا فى كتابه عن تطور السياسة الخارجية الامريكية : « ان الحرب الاسبانية الامريكية سنة ١٨٩٨ — هى التى أدت الى العدول عن مذهب القارية الامريكية ، وكان من نتائج هذه الحروب أن أمريكا ارتبطت بالفلبين على بعد سبعة آلاف ميل فى قلب الشرق الاقصى ، وكانت حجج الاحتفاظ بها متعددة ، ومنها حكم القدر وامانة الرجل الابيض وفرصة تنصير الوطنيين وتوفيق الحظ بالاستيلاء على مكان الى جوار أرض القارة الاسيوية »

وتراخى الزمن ولم تزل دعوة الدين ودعوة السياسة تتماشيان معا بعد أن دخل الاستعمار فى اخر أطواره بالقارة الافريقية ، فكان دعاة الدين والسياسة يختلفون لانهم مختلفون فى المذهب الذى ينتمون اليه كما يختلفون على الدولة التى يعملون لضم البلاد المستعمرة اليها . وقال بارنز Barnes فى كتابه الامبراطورية اوالديمقراطية: «ان المسيحيين فى أوغندة من اتباع الكثلكة والكنيسة البروتستانتينية ظلوا يتقاتلون بينهم ويسمى الآخرون فى لغة أهل البلاد — وانجليزا — والاولون بتلك اللغة وافرينسا — وكم من مرة ضجت بينهم عداوة الجنس والدين »

وكل من المؤرخين الشرقيين والغربيين يكتب تاريخه فى النصف الاول من القرن العشرين وهو يستمع الى خطب القادة الغربيين الذين تكلموا عن غزو فلسطين فى الحرب العالمية الاولى فوصفوها بانها الحرب الصليبية الاخيرة ، وبعد انتصاف هذ القرن يتناول تاريخ العالم ثلاثة من المؤرخين هم هايس Hayes ومون Moon ووايلاند Wayland فيلخصون أسباب الاستعمار العصرى فى أربعة هى (١) رغبة أصحاب الحماسة الوطنية فى اضافة املاك الى أوطانهم (٢) رغبة أصحاب الاعمال فى فتح الاسواق وحماية التجارة (٣) فكرة الاستيلاء على بعض المواقع لضرورة الدفاع (٤) الرغبة فى تمدين الامم المختلفة او تنصيرها

واولى الامور بالملاحظة فى هذا الصراع أنه يتكرر فى بقاع الارض بعد فصل الدولة والكنيسة فى البلاد الفرعية ، وان الدولة تعترف بالدعوة الدينية خارج بلادها لانها تعتبرها دعوة سياسية تستعين بها على خصومها فى مجال السياسة الدولية

□

ومن هذه البداءة نعلم كيف انتهت أوربة الى رسالة الرجل الابيض عنوان الاستعمار الحديث وميسمه الظاهر بين حركات التاريخ الاجماعية

فما استطرد الاوربيون الى هذه النتيجة الا من تلك المقدمة، وما كانت رسالة الرجل الابيض وامانة الحضارة الاوربية الا النسخة المنقحة من رسالة الخلاص الروحى وأمانة الاصلاح وتطهير الارض من مفاسدها



صلاح الدين الايوبى

ولم يتحول الاوربيون الى هذه الدعوة الا لان هذا التحول ضرورة قاسرة تفرضها مجاراة الزمن على أنصار الكنيسة ومعارضيها ، فقد كان القرن السادس عشر وما بعده فترة متسمة بالانشقاق بين اتباع الكنيسة والثورة على سلطانها ، فتحول المستعمرون الى النداء بأمانة الرجل الابيض لانه النداء الذى يعطى الاوربيين ما يدعونه من حقوق الفتح والسيادة ولا يلجئهم الى الاعتراف بالسلطة الدينية والتسليم بما تميز به بعض المستعمرين على بعض من حقوق التبشير والولاية . ولم يرفض أنصار الكنيسة هذا النداء الجديد . بل قبلوه وكرروه لانه نداء يؤيد الدعوة الدينية فى بعض معانيه ولا يستلزم حتما أن يلغيها أو ينقصها ويسقط حقوقها ، ولعله كان وسيلة منتظرة للتوفيق بين روح الزمن الماضي وروح الزمن الحديث زمن الثورة العلمية والتبشير باسم الثقافة الانسانية . فمن أراد من المستعمرين ان يجارى العصر ولا ينشق عن الماضي امكنه أن ينادى رسالة « الرجل الابيض » كأنها كلمة مرادفة لرسالة القارة الاوربية تشمل بدعواها كل ما شملته دعوى هـذه القارة قبل عصر الاستعمار بعدة قرون ، فان حجة الرجل الابيض انما هى حجة القارة الاوربية فى جميع عصورها ، ويزداد عليها بعد عصر الحروب الصليبية انها امتدت الى الرجل الامريكى الذى صبغ الاقطار النائية فعلا بالصبغة البيضاء ، وحقق له السيادة على الاجناس الحمراء والسوداء

ولا نحسب أننا نفهم سر انتقال الدعوة الصليبية الى الدعوة البيضاء الا اذا فهمنا أن الرسالة الجديدة جاءت لتحل محل الدعوة الصليبية كما جاءت لتمتد بها وتستفيد من سوابقها ، فنحن لا نفهم سر هذا الانتقال على حقيقته اذا فهمنا أن رسالة

الرجل الابيض نسخة مكررة من الحروب الصليبية فى جميع تفصيلاتها ، ولا نفهمه على حقيقته اذا فهمنا ان اللاحق من الدعوتين يلغى السابق فى جميع تفصيلاته . وانما القـــول الفصل بين الامرين أن هناك اختلافا كثيرا وهناك اتفاقا كثيرا بين الدعوة التى سلفت والدعوة التى حلت فى محلها . وكذلك يكون الحال فى كل شيئين حل احدهما محل الآخر ... ليست سيارة اليوم مناقضة لمركبة الخيل بالامس ، وليستهذه بتلك فى جميع أجزائها ومنافعها ، ولكنهما ــ بعد ــ شىء واحد فى الغاية وشيئان مع اختلاف الزمن فى الصنعة والتركيب



أسباب الاستعمار

كل حركة كبيرة مشتركة فى تواريخ الامم لابد ان ترجع الى اسباب كثيرة ولا تنحصر فى سبب واحد بالغا ما بلغ من التشعب والاتساع

وكل سبب واحد ينتحل لتفسير حركة من هذه الحركات يقصر عن تفسيرها فى النهاية ، ولا يصلح لتحقيقها فى التاريخ مالم تقترن به أسباب مصاحبة له أو بعيدة منه فى مبادئهـا وعواقبها

والاستعمار حركة من هذه الحركات المشتركة فى تواريخ الامم الشرقية والغربية ، كل سبب فريد يذكر لها يقصر عن تفسيرها ، ويحدث مثله فى فترة من فترات التاريخ فلا يؤدى الى مثل نتائجها

قيل كثيرا ان سبب الاستعمار هو اغلاق الطريق على تجارة الهند والبلاد الشرقية

ولكن تجارة الهند والبلاد الشرقية كانت متصلة من طريق غير طريق البحر الابيض المتوسط ثم اغلقت بعـد فترة من الزمن ولم تنشأ من اغلاقها حركة ترمى الى السيطرة على تلك الطريق المغلقة

كانت فى روسيا طريق للتجارة الشرقية تسلكها الشركات الهولندية والبريطانية وشركات الموانىء على بحر الشمال ، وكان قياصرة الروس يشجعون هذه الشركات ويرحبون بها ويغنمون منها الاتاوات والهدايا فى ذهابها وايابها ، ثم اغلقت

الدولة الروسية هذه الطريق على الشركات الهولندية والبريطانية بعد استيلاء تلك الدولة على الشواطىء الاستونية ، لانها ارادت ان تحتكر الغنيمة كلها لنفسها وتشرف على سير القوافل من داخلها ، ولم تحدث من جراء اغلاق هذه الطريق على التجارة الشرقية حركة من قبيل حركة الاستعمار

وقيل كثيرا أن حركة الاستعمار نشأت من زحام السكان فى القارة الاوربية ونزوعهم الى الهجرة والتعمير فى البلاد النائية

ولا يصدق هذا التعليل على بلد واحد من البلاد الشرقية التى اتجه اليها المستعمرون فى الخطوات الاولى من حركة الاستعمار. فان جملة النازحين الى الشرق من الاوربيين لا يكفون لتعمير قرية واحدة ، وكل من هاجر الى الشرق فانما كان يرتاده زائرا متاجرا ليعود الى وطنه ويستقر فيه بعد رحلة أو بضع رحلات ، وانما يصدق ذلك التعليل على المهاجرين النازحين الى القارة الامريكية ، سواء كانوا من البريطان والهولنديين أو من الاسبان والبرتغاليين ، وسواء قصدوا الى الشمال او قصدوا الى الجنوب ، ولم تلبث هجرتهم أن تحولت الى اقامة دائمة فاتخذوا من مقامهم الجديد وطنا يملكونه دون أبنائه الاصلاء ودون الوافدين اليه على السواء

وقيل كثيرا أن كشف الطريق الى الشرق كان سبب الاستعمار الاول ، وهو قول لا يمنع السائل أن يسأل ! وما سبب الكشف عن ذلك الطريق ؟ ولكننا ندع هذا السؤال وننتهى مع الطريق المكشوف الى غاية مداه . فهل كان يكفى أن يكشف الاوربيون طريق الشرق ليستولوا عليه ؟ هل كانوا يصلون اليه مستعمرين لو أنهم كشفوه قبل ذلك بمائة سنة

او مائتين ؟ وهل كان من المستطاع أن يتم الاستعمار لو لم تصاحبه بواعث الحروب الاندلسية ونزاع المذاهب الدينية وبحوث العلماء عن الجغرافية والفلك وتقدم الملاحة فى الغرب مع تقدم الصناعة وتقدم التسليح ؟

وكل اولئك هل كان يكفى لنشأة الاستعمار لو لم يكن حكم الرجل الابيض للرجل الابيض فى القارة الاوربية قد وصل الى نقطة من نقط التحول التى لابد ـ بعدها ـ من التغيير

فما كان الرجل الابيض ليفكر فى دعوى الامانة على حكم الدنيا وهو مسخر للحكم أو قابل للتسخير ، وقد كان هذا الرجل الابيض مغلوبا على امره فى عهد الامبراطوريات الاوربية التى دانت لها بالطاعة شعوب أوربية متعددة الاجناس واللغات، ثم تمزقت هذه الامبراطوريات وخرج منها أمراء الاقطاع بفتات من السلطة والاستقلال ، ثم تجمعت الاوطان التى تدين بالطاعة لابنائها وتأبى الخضوع للحاكم الاجنبى عنها ، ثم نبتت أمانة الرجل الابيض حين نبت الرجل الابيض المستقل بحكم نفسه عن غيره من ابناء جنسه ، ولهذا تأخر فى ميدان الاستعمار اولئك الاوربيون الذين وجدوا فى قلب القارة من يحكمونهم ويقنعون بحكمهم ، ولعلهم لو استقلوا جميعا بحكم انفسهم قبل عهد الحضارة الحديثة التى اشتهرت باسم الحضارة الاوربية لما تخيلوا لهم رسالة انسانية يحسبونها معلقة فى عنق الرجل الابيض ، ولوقفوا عند حد الرسالة الدينية التى اندفعوا اليها زمنا فى حملات الصليبين

□

وربما اكتملت فى قوم من الاقوام جميع البواعث والاسباب

التى تحسب من بواعث الاستعمار وأسبابه، ولكنهم لايتحركون لاستعمار قطر من الاقطار قبل أن يتم لهم كيان دولى أو شخصية سياسية ، وكذلك كانت حال ايطاليا فى عهد الاستعمار قبل استقلالها وبعد اتحاد أجزائها فى دولة مستقلة ، فان أطوارها الاجتماعية والاقتصادية قبل الاستقلال لم تكن تختلف فى شيء جوهرى عن الاطوار المعهودة فى اسبانيا والبرتغال مما كان سببا فى رأى المؤرخين لدخولهما فى حومة الاستعمار ، ولكن ايطاليا ـ غير المستقلة ـ لم يكن فى وسعها بطبيعة الحال أن تدخل الحومة كما دخلها الاسبان والبرتغاليون ولابد لها من السيادة القومية أولا قبل أن تفكر فى بسط السيادة على غيرها. فلما ظفرت بهذه السيادة لم تكن أسبابها الاجتماعية أو الاقتصادية هى الحافز لها على استعمار الاقطار الشرقية ، ولم تكن لها رءوس أموال تثمرها فى خارج بلادها ، ولا معامل صناعية كبرى تحتاج الى المستعمرات لتصريف مصنوعاتها أو جلب خاماتها ، وانما كانت مسألة الاستعمار فى لبابها مسألة « وجاهة دولية » ومناظرة بينها وبين الدول اللاتينية التى سبقتها الى المضمار وأصبحت فى عداد الدول الكبرى لانها فى عداد الدول التى تملك المستعمرات وتحكم الشعوب

فعلى خلاف الشائع عن ضرورة الاستعمار لتثمير الاموال فى الخارج كانت شركات ايطاليا فى الخارج الى سنة ١٨٨٠ تصفى رءوس أموالها وتسلم أعمالها للحكومة لتديرها باشراف موظفيها . ففى سنة ١٨٧٠ أسست الشركة الملاحية الكبرى ـ شركة روباتنيو ـ مرسى لها فى ميناء عصب على البحر الاحمر ولم تمض عشر سنوات على تأسيسه حتى كانت قد باعت سفنها

واسلمت مرساها للحكومة خوفا من اشهار افلاسها . ولما حاولت الحكومة أن تستفيد من هذه السفن ـ بعد الاستيلاء على ميناء مصوع أيام حرب الدراويش ـ تحرجت العلاقات بينها وبين أمراء الحبشة وتعذر الاتفاق بين الطرفين على نقل الصادرات والواردات بوساطة القوافل او السفن الايطالية . ولم يكن عند الدولة الناشئة فضل مال تنفقه على الحرب لارغام امراء الحبشة على قبول معاملتها ، ولم يكن لها فضل من التجارة تروجه فى خارج بلادها ويكفى لاستخدام سفنها فى البحرين الابيض والاحمر . بل كانت معاهدتها التجارية مع فرنسا قد انقطعت فى تلك الآونة لحنق فرنسا من مسايرة وزارة كريسبى للسياسة الالمانية فى اوربة الوسطى ، فلم تكن عند الايطاليين أموال يديرونها يومئذ فى الصناعة او التجارة ويطلبون من اجلها ادارة المستعمرات ، ولولا البواعث النفسية ـ بواعث الوجاهة الدولية ـ لما شعر الايطاليون بضرورة قط تلجئهم الى الدخول فى حومة الاستعمار

ولعل هذه البواعث النفسية كانت فى الحرب الايطالية الحبشية الاخيرة أظهر منها فى الحرب الاولى التى اعقبت أزمة سنة ١٨٩٦ وانتهت بالهزيمة النكراء فى عدوة . فان العظمة الرومانية التى حاول موسلينى أن يبنى عليها مجد ايطاليا الفاشية كانت ضربا من الخيلاء الخاوية أمام شبح الهزيمة النكراء فى الحرب الحبشية الاولى ، وقد أراد موسلينى فى الواقع أن يغزو بلاده بالدعوى والدعاية حين أقدم على غزو الحبشة بعد اربعين سنة من العار وسوء السمعة العسكرية ، وأراد أن يغزو أوربة بالدعوى والدعاية بعدما افتضح من ضعف ايطاليا وتسليمها فى الحرب العالمية الاولى . ولو أن الحملة

الايطالية على الحبشة صفيت من جميع هذه البواعث النفسية لما بقى لها باعث اقتصادى أو سياسى يغرى الحاكم المسئول بالتصدى لمشكلة الحرب وما يتبعها من سوء السمعة وسوء العلاقة بالدول الاخرى

وكم تقلب من أسباب الاستعمار بين رحلات البرتغال فى القرن السادس عشر وبين غزوات الايطاليين من أواخر القرن التاسع أى أوائل القرن العشرين ؟ فهل يخطر على البال أنها اسباب واحدة عملت فى ثلاثة قرون وعملت فى رومة كما عملت فى مدريد ولشبونة وعملت فى هذه جميعا كما عملت فى لندن وباريس وبرلين وبروكسل وامستردام ؟

انما هى حركة التاريخ كله بما احتواه من عوامل الحياة المشتركة بين الامم والحكومات ، وكل اختزال لهذه العوامل فهو اختزال للحقيقة فى فهم كل حركة كبيرة من الحركات العالمية

وأوجز ما يمكن من التلخيص لهذه العوامل المتغلغلة فى جوانب الحياة الانسانية ان نثوب بها الى شطرين كبيرين يقتسمان بينهما تلك العوامل فى تفصيلاتها ، وهما شطر العوامل النفسية وشطر العوامل الاقتصادية ، وأول الشطرين أرجحهما وأقواهما على الدوام فى جميع الحركات التاريخية الكبرى ، ومنها حركة الاستعمار

لهذا كانت البرتغال اسبق من انجلترا الى المضمار ، ولو لم تكن للعوامل النفسية قوتها الراجحة فى هذه الحركة لكانت انجلترا أولى بالسبق اليها . اذ كانت عندها السفن وعندها الخبرة بالملاحة وعندها الحاجة الملحة الى التجارة الخارجية

وعندها بوادر الصناعة الحديثة وأدواتها وعندها الشركات التى ترتبط بكل مكان فى القارة الاوربية

▭

ولا حاجة الى الاطالة فى سرد المسائل التى تنطوى فى شطر العوامل النفسية ، فهى تتلاقى بجملتها فى الدين والعنصر والافكار العلمية

ولا حاجة كذلك الى الاطالة فى سرد المسائل الاقتصادية . فهى تتلاقى بجملتها فى التجارة والصناعة واحوال المعيشة

اما عامل الدين فتكفى نظرة اجمالية فى تاريخ أوربة منذ القرن الثانى عشر الى مفتتح عصر الكشوف لنعلم أن الشواغل الدينية كانت تغمرها فى مشرقها الى مغربها فلا يتاتى ان تصدر عنها حركة عامة دون أن تمتزج بالدين فى ناحية من نواحيها ان لم تمتزج به فى جميع نواحيها . ففى عصر الصليبين شملتها الدعوة الدينية من القسطنطينية الى الجزر البريطانية ، ثم انقسمت القارة الى ثلاثة معسكرات فى الشرق والوسط والمغرب ، لم يكن معسكر منها يخلو من مشكلة حيوية لها علاقة وثيقة بالدين . فكانت أوربة الشرقيةمشغولة بمدافعة الترك العثمانيين عن حدودها ، وكانت أوربة الوسطى مشغولة بمقدمات حرب الثلاثين وجرائرها فضلا عن المنازعات بين الكنيسة وطلاب الاصلاح ، وكانت أوربة الغربية مشغولة بأمثال هذه المنازعات مع اشتغالها ببقايا الفتن المتخلفة فى حروب الاسبان والبرتغال والمغاربة

ففى مثل هذا الجو الذى تغمره الشواغل الدينية لا يتأتى

ان تصدر عن القارة حركة عامة بمعزل عن البواعث الدينية فى تدبيرها أو تنفيذها

وليست مسائل العنصر بأقل من مسائل الدين شأنا فى امتزاجها ـ تدبيرا وتنفيذا ـ بأسباب الحركات العامة

ويبدو لنا أن المؤرخين الاوربيين لم يولوا مسائل العنصر حقها فى تقدير الحوادث السياسية بل فى تقدير الحوادث الدينية التى نشأت من تنازع السيادة بين العناصر القومية ، فما من مشكلة دينية خلت من مشكلة عنصرية تسبقها أو تصاحبها ، وما من خلاف على المعتقد خلا من آثار الخلاف بين طبائع الاقوام التى تتألف منها شعوب القارة الاوربية ، وهى فى مجموعها شعوب اللاتين وشعوب الجرمان والثيوثون وشعوب الصقالبة أو السلاف

لم كان اللاتين جميعا الا القليل منهم تابعين للمذهب الكاثوليكى والكنيسة الرومانية ! ؟

ولم كان الجرمان والثيوثون جميعا الا القليل منهم تابعين لمذاهب لوثر وكلفن وغيرهما من الخارجين على مذهب الكثلكة ؟

ولم كان الصقالبة جميعا الا القليل منهم خارجين على المذهبين ؟

بل لماذا بقيت الكثلكة حيث اجتمعت السيادة العنصرية وسيادة الامبراطورية المقدسة فى الدولة النمسوية ؟

ليس أدل على تغلغل هذا الباعث العنصرى فى كل علاقة بين شعوب الغرب من بقاء آثاره فى علاقات المستعمرين خارج القارة كما حدث فى علاقات الانجليز والهولنديين والاسبان والفرنسيين

لقد اختلف هؤلاء المستعمرون وتصارعوا على الاملاك

والاموال فى القارة الاسيوية ولكن الانجليز والهولنديين تفاهموا على المساومة حيث تعذر هذا التفاهم بين الانجليز والفرنسيين وبين الانجليز والاسبان ، فى أوائل عهد الاستعمار . فكان الخلاف بين الجرمان واللاتين ـ حيث كان ـ خلاف محو واستئصال يقابله خلاف التفاهم والمساومة كلما اختلفت امتان من عنصر الجرمان والتيوتون

ولم يزل هذا التنافس بين العنصرين اللاتينى والجرمانى قويا الى أيامنا هذه فى القرن العشرين ، ولكنه كان على أشده فى أيام نشأته عند نهاية القرون الوسطى ، قبل قيام الدول الجرمانية الكبرى ووقوع التنافس بينها على السيادة العالمية ، كما تنافس الالمان والانجليز حتى لجأ هؤلاء الى محالفة الفرنسيين ولجأ أولئك الى محالفة الطليان

وقد بدأ التنازع بين العنصرين على السيادة العالمية فى قلب القارة الاوربية ، ثم امتد الى القارات الاخرى عند اتجاه الاوربيين الى الاستعمار فى الشرقين الاقصى والادنى ، فلم ينعزل هذا التنافس قط بين العنصرين فى خطوة من خطوات الاستعمار الاولى ، سواء ظهرت فى صورة الخلاف بين مذاهب الكثلكة والمذاهب البروتستانتينية ، أو فى صورة الخلاف على مزايا الحكم أو مصالح التجارة والسياسة

ولا مندوحة من الالتفات الى هذه الدعوة العنصرية فى كل مرحلة من مراحل الاستعمار منذ نشأته الى أيامه الاخيرة قبل الحرب العالمية الثانية . فان هذه الدعوة العنصرية لم تختف قط من جو السياسة العالمية على ضيعة من الضيع ولمناسبة طارئة بعد مناسبة مدبرة ذهب اوانها . فلما اتفق الجرمان واللاتين والصقالبة على الاستعمار ظهر شعار الرجل

الابيض مقتبسا ولا شك من أصول الدعوة العنصرية ، ولما خيف أن يختلف المستعمرون من الجرمان واللاتين والصقالبة ظهرت صيحة « الخطر الاصفر » لتوحيد الدول المستعمرة فى وجه الامم الشرقية الثائرة ، ولما انقسمت أوربة انقسامها الحاسم بين الحربين العالميتين كانت الدعوة الآرية أجهر الدعوات المترددة فى جوانبها وانتشرت مع الدعوة الارية دعوة مصاحبة لها تفرق بين الاريين الاصلاء والاريين الدخلاء وتقسمهم الى طبقات تتفاوت فى حقوق الحكم والسيادة على غيرها من الشعوب من بيض وصفر وسمر وسود

□

أما الافكار العلمية التى كان لها أثر فى نشأة الاستعمار فأهمها فكرة « استدارة الارض » وامكان الوصول الى مشرقها من الاتجاه الى آفاقها الغربية

وهذه الفكرة ، فى أسلوب تأثيرها على الحوادث ، نموذج لسائر الافكار العلمية فى خضوعها لدواعى المصلحة وفى اخضاعها لتلك الدواعى بالمشيئة والاقناع

فالاوربيون الغربيون كانت لهم مصلحة تضطرهم الى البحث عن طريق للتجارة مع الشرق غير طريق البحر الاحمر وما جاوره من بلاد العرب والترك العثمانيين ، وكانت فكرة استدارة الارض توافق البحث عن الطريق المقصود وتؤدى الى تحقيق المصلحة المطلوبة ، ولكن هذه المصلحة لم تخلق فكرة الارض الكرية ولم تكن وحدها كافية للقيام بالرحلة الى الآفاق الغربية . بل اجتهد كولمبس سنوات لاقناع أصحاب المصلحة بمصلحتهم ، ثم اقنعهم بها فلم يصل الى ما أراد



کریستوف کولمبس

ولا الى ماارادوا من جميع رحلاته ، وجاءت خطته فى الكشف خاضعة لفكرته العلمية ولم تكن فكرته العلمية خاضعةلخطته. اذ لولا ايمانه باستدارة الارض لطلب الكشف من طريق آخر كما طلبه البرتغاليون من طريق الطواف حول القارة الافريقية

ولعل الفكرة العلمية افادت كولمبس وافادت عصره كله من ناحيتها العامة التى بعثت فى النفوس حب البحث والاستطلاع وجعلت الوقوف على كرية الارض بالتجربة العملية مطلبا مستحقا للبحث عنه مع ما فيه من النفع والمصلحة : ولولا حب الاستطلاع لكان اهتمام التجار بالكشوف والرحلاتمقدما على اهتمام الرحالين والمغامرين ممن يخدمون التجارة وليسوا من ذويها ، فلم يقم كولمبس بالرحلة لانه تاجر ابرع من زملائه ولا لانه تاجر احرص منهم على الربح والثراء ، ولكنه قام بها لانه مغامر علمى يحفزه التطلع الى المجهول قبل كل حافز من الكسب والغنيمة

اما شطر العوامل الاقتصادية فى نشأة الاستعمار فقوامه كما هو معلوم تجارة المشرق فى اصناف الابازير والانسجة والطيوب ، وقد تكررت الاشارة الى هذه التجارة فى كل حديث عن اسباب الاستعمار حتى خيل الى الناس انها هى السبب الوحيد للحملة على المشرق وانها كانت كافية وحدها لابتداء هذه الحملة والمثابرة عليها ، ولكنه ظن مبالغ فيه واشاعة من قبيل الاشاعات التى تثبت بالتواتر ولا تثبت على التمحيص والاستقراء ، فما كانت تجارة المشرق كافية بغير العوامل الاخرى لخلق حركة الاستعمار فى حينها ، وهى - سواء دارت على الابازير والانسجة - لم تكن مما يهم القائمين

بالاستعمار خاصة بين الاوربيين ولم تكن مما يعييهم أمر الحيلة فيه ..

فالابازير كانت لازمة على الاكثر لعلاج الاطعمة وحفظ اللحوم فى البلاد الباردة التى تحتاج الى اللحوم المحفوظة خلال اشهر الشتاء ، وليست بلاد الاسبان والبرتغال من هذه البلاد ولا هى من الاقاليم التى يعييها تدبير غذاء الشتاء بغير علاج الابازير . وقد مضى على ابناء أوربة الوسطى واوربة الشرقية زمن طويل تعودوا فيه أن يقنعوا من هذه الابازير بما يصل اليهم من طريق القوافل الروسية والبلقانية ، فلم يكرثهم ان يفقدوا مواردها من غير تلك الطريق

والانسجة كانت من مطالب الترف التى يقدر عليها أصحاب الثروات الواسعة ويملكون وسائل استيرادها فى طريق البر والبحر فى بلاد الفرس والترك العثمانيين ، وقد كانت للشركات الانجليزية « مكاتب توكيل » فى البصرة وحلب وسواحل فلسطين عملت فى نقل التجارة بعد انتظام الطرق البحرية حول القارة الافريقية ، وكان فى الوسع قبل ذلك تعميم هذه المكاتب والوكالات على طول المسافة بين سواحل الخليج الفارسى وسواحل فلسطين ، كما كان فى الوسع أن تذلل عقبات السفر والاتجار فى بلاد الترك العثمانيين بالامتيازات الاجنبية التى اخذوا فى السماح بها منذ عهد سليمان القانونى فالذين يذكرون التجارة الشرقية ويحسبونها سبب الاسباب فى نشوء حركة الاستعمار يبالغون ــ بل يفرطون فى المبالغة ــ ولعا منهم بتعظيم شأن المسائل المادية فى توجيه حركات التاريخ وغراما بتهوين شأن البواعث النفسية التى تمتزج على

الدوام بتلك المسائل المادية كلما اتسع نطاقها وتناولت مختلف الامم فى مختلف الظروف

وقد كان سوء المعيشة فاشيا فى أرجاء متفرقة من القارة الاوربية يوم توجهت الكشوف الاولى للبحث عن طرق التجارة الشرقية ، ولكن سوء المعيشة هذا كان على أشده فى أرجاء أوربة الشرقية وأوربة الوسطى ولم يدفعهم الى الاتجاه نحو المشرق القريب منهم بل دفعهم على نقيض ذلك الى الاتجاه نحو المغرب كما فعل قياصرة الروس وعواهل الدولة النمسوية ، وما كان سوء المعيشة فى مرده الى أصوله الا نتيجة للازمات النفسية التى أثارت الشعوب تارة لطلب الاستقلال السياسى وتارة لطلب الحرية الدينية وتارة أخرى للتنازع على السيادة العنصرية ... فلما تفرقت الاقاليم المستقلة واختل النظام فى الاقطار الواسعة بعد تمزيق شملها وتفتيت مواردها بين صغار الامراء وولاة الاقطاع تجمعت تلك الحالة السيئة واضطربت معيشة الملايين من ابناء القارة فى مشرقها ومغربها ، وكان قصارى مابلغ سوء الحال بتلك الملايين أنه استفزها الى الثورة فى أوطانها أو رسم لها القبلة التى تنتقل اليها اذا خطر لها أن تهجرها ... ومثلها فى ذلك مثل الالمان يوم شاعت بينهم دعوة الاتجاه الى المشرق وتصايحوا بشعارهم المشهور « من برلين الى بغداد ، ومن بغداد الى الهند » ثم بقى الالمان فى بلادهم وبقى هذا الشعار « قبلة مرسومة » عند أهل السياسة قلما يتعدى دواوين الحكومة والشركات . وكذلك حدث يوم ضاقت بالاوربيين سبل العيش فى القرن السادس عشر وما بعده على أول عهدهم بحملات الاستعمار ، فقصارى ما بلغ الحنق بهم يومئذ أنه جعل

الاتجاه الى الخارج أمرا قريبا من التفكير ، ولكنهم لم يفارقوا أوطانهم جماعات جماعات ليسلكوا طريق التجارة وينعموا بالانسجة والابازير ، وانما فارقوا أوطانهم جماعات جماعات بعد ان علموا أن السفر للاقامة الطويلة وانهم يسافرون الى الهند الغربية لا الى الهند الشرقية وينازعون الهنود الحمر ولا نزاع لهم مع هنود الانسجة والابازير

وعلينا ــ بعد ــ ان نذكر أن عوامل الاستعمارمابين مادية أو نفسية ــ تتناقض فيما بينها ولا تطرد على نهج واحد فى جميع الحوادث والاوقات ولا فى جميع الدول الغالبة والشعوب المغلوبة ، وهى لا تكون طبيعية معقولة الا اذا عرض لها هذا التناقض ووقع فيها الاستثناء كثيرا أو قليلا على حسب الاحوال . اذ كان الاستعمار قد استغرق من الزمن عدة قرون ومن المكان عدة أقطار ، وتقلبت فيه الحوادث وطرأت عليه المفاجآت من آونة الى آونة ومن بقعة الى بقعة ومن قبيل الى قبيل ، ومحال أن يكون هذا كله قد دخل فى حساب المستعمرين من الوهلة الاولى ، ومحال أن يكون للاستعمار حساب مختوم ينتهى بانتهاء الطبقة الاولى أو الطبقات التالية من أصحابه القائمين عليه . فاذا اصطدموا على ممر الزمن بمشكلة لم تدخل فى تقديرهم ولم تكن فى مقاصدهم فلا مناص لهم من مطاوعة الضرورات ومناقضة الغرض الذى كانوا يتوخونه يوم رسموا سياستهم لليوم والغد المعلوم أو المجهولة . ولاعجب اذن أن نرى البنادقة والمماليك يتحالفون على البرتغاليين وأن نرى البرتغاليين والمسلمين يتحالفون على المغول ، ولا أن يكون بين الهولنديين والعرب حلف وبين الهولنديين والاسبان عداء . فهذا كله من اختلاف الاتجاه فى عرض الطريق مع الثبات

فى النهاية على الطريق الاخير ، وقد يساعدنا على تصور هذا الاختلاف الموقوت ان نذكر ان السفينة تسير فى الجنوب الى الشمال ـ مثلا ـ ولا يمنع ذلك أن يكون على ظهرها من يسير من الشمال الى الجنوب ، بل لايمنع ذلك ان تعرج السفينة غربا وشرقا وفى كل اتجاه تضطرها عوارض الجو الى اتخاذه ريثما تعود فتنتظم فى طريقها المقصود من الجنوب الى الشمال

وفى تاريخ الاستعمار الشرقى أعمال متفرقة تحسب من النتائج الباكرة لتلك العوامل المادية والنفسية التى اجملناها فيما تقدم ، ولكننا اذا اردنا أن نميز بينها عملا واحدا ترتبط به جميع النتائج اللاحقة فى استعمار الشرق لم نجد بينها ماهو أحق بالتمييز من استيلاء البرتغال على ميناء « سبتة » فى سنة ١٤١٥ لانه كان فاتحة المعرفة بالطريق وفاتحة الاعمال « المنفذة » فى وقت واحد ، واحرى بنا أن نرجع فى سرد مقدمات هذا الحادث الى مؤرخى الغرب لننفى عن الخاطر مظنة الانقياد للشعور الشرقى فى مسألة ترتبط بالعداء القديم بين الاستعمار وضحاياه

تناول الاستاذ بارى Parry مقدمات هذا الحادث فى كتابه عن « أوربة والدنيا الواسعة » وهو اوجز المؤلفات وادقها فى هذه الموضوع فقال فى الفصل الثانى من الكتاب :

« ان الاستيلاء على سبته وضع البرتغاليين فى موضع يهيىء لهم معرفة وافية بالقارة الافريقية لم تكن متهيأة لغيرهم من الاوربيين . فان الأمير هنرى الملاح قد سمع فى سبتة ـ ولا ريب ـ بالقوافل التى ترحل فى الصحراء الى تمبكتو وتعود منها بالعاج والتبر مقايضة على البضائع من زنوج وادى النيجر ، ولعله سمع هناك بالطريق التى تتجه شرقا



هنرى الملاح

الى غانة محققة بذلك رجاء من يرجو أن تكون أفريقية شبه جزيرة خلافا لما قرره الجغرافى بطليموس ، ولعله قد سمع أيضا من المصدر نفسه بمصبات بلاد صنهاجة والنيجر التى قد يتبين لمن يتتبعها انها اما أن تكون بواغيز متصلة بالبحر الهندى أو أنهارا تنبع فى جبال القمر التي شاع فى الاخبار المتناقلة انها منبع الانهار فى وسط القارة الافريقية وغلب الاعتقاد بأنها منبع نهر النيل

« وفى سنة ١٤١٩ ــ وهى السنة التالية لبعثته الثانية الى سبتة ــ قبل الامير هنرى منصبه الشرقى بولاية الجرف أقصى ولايات البرتغال فى الجنوب ، فاعتزل البلاط الملكى وشواغل السياسة واخذ فى اقامة مستقره الصغير على « سجر » فوق رأس سان فنشنت هضبة البرتغال الصخرية الى الجنوب الغربى منها . وبقى ثمة يرقب المحيط الاطلسى بين حاشيته الصغيرة التى معظمها من اناس ركبوا البحر أو عناهم أمر التجارة والرحلات على متنه ، بين ملاحين وفلكيين وبناة سفن وراسمى خرط وصناعى أدوات وآلات تستخدم فى الملاحة ، وكان كثير منهم ايطاليون دعاهم الامير هنرى للعمل على نفقته وتحت اشرافه ، وطفق فى سنة ١٤٢٠ يبعث من ميناء لاجوس القريب سلسلة من البعوث للكشف عن السواحل الافريقية واستطلاع الطريق الى الهند ، وهى بلاد كانت معروفة بمحصولاتها وان لم يكن عند الاوربيين خبر عنها غير اخبار القصص والاشاعات ، ويفهم من يوميات (ازورارا) ان الامير هنرى كان يفكر فى وجود الطريق الشرقية ويتوق الى فرصة سانحة لتحويل الامم الزاخرة من أبناء الهند الى الديانة المسيحية ، ويرجو فى الوقت نفسه أن يتمكن

من عقد محالفة تجارية حربية بينه وبين مملكة الحبر حنا Prester John ذلك الشبح البعيد الذى كان يومئذ يشبه اشباح الاساطير . أما أساس أخباره من الواقع فهو ولا ريب قائم على مملكة الحبشة المسيحية التى يحيط بها الاعداء من المسلمين ولا تزال للقبط كنيسة بها على جرف من الثبات . فاذا تسنى للبرتغاليين أن يصلوا الى مملكة الحبر حنا فقد بات المسلمون فى أفريقية الشمالية محصورين بين سدود محكمة من المسيحيين ، ولعل البرتغاليين واصلون اذن الى مجرى من الماء فى غربى أفريقية يبلغ بهم الى منابع النيل حيث ينحدرون معه ويدهموا المغاربة من خلفهم ، فان لم يتحقق امل من هذه الآمال فحسبهم أن يعلموا أن القوافل ترحل من شمالى أفريقية للاتجار مع الزنوج على أطراف الصحراء ، ومتى اهتدى البرتغاليون بحرا الى بلادهم فهنالك يفتتحون معهم سوق التجارة الرابحة ويدخلون الكثير منهم فى الديانة المسيحية ، ومن الجائز ان الامير هنرى كان له نصيب من ولع الاستطلاع العلمى الذى شاع بين الخاصة من ابناء عصره الى جانب هذه المقاصد التجارية العسكرية الدينية

« وكان التقدم فى السنوات الاولى بطيئا شديد البطء فلم تتمكن سفينة أوربية من تجاوز رأس بجادور الى الجنوب الا بعد أربع عشرة سنة ، وكان ميناء بجادور هذا أول معالم الطريق الى الغرب من أفريقية والعقبة المخيفة أمام السفن التى تتلمس مجراها عند سواحلها ، يصد الملاحين عنها تلك الرهبة من بحر الظلمات التى ورثوها من العرب وذلك الخوف من الامواه الغالية تحت شمس المدار بأشعتها الملتهبة التى وقع فى أوهامهم أنها تصبغ من يصلاها بصبغة الزنوج السود .

الا ان الامير هنرى كان من اولى الصبر والعزم وكان من اعوانه فتى ناشىء يسمى جيل ايانيس خرج فى رحلة تطوف حول رأس بوجادور فثبت له ان البحر الى جنوبها والى شمالها متشابهان وتتابعت رحلات الكشوف بعد سنة ١٤٣٤ على نسق أسرع واهدأ مما كان قبل ذلك

« وكانت العقبة النفسية الاخرى التى كان عليهم تذليلها اعتقاد بعضهم ان الرحلات الافريقية لا طائل تحتها ولا منفعة من ورائها ، فظهر خطأ هؤلاء فى سنة ١٤٤١ حين عادت احدى البعثات من الساحل الذى يقع قريبا من جنوب رأس بوجادور بكيس فيه تبر وجماعة صغيرة من أسرى الزنوج ، وقد بلغ عدد العبيد الذين جاءت بهم السفن البرتغالية بعد ذلك الى سنة ١٤٤٦ نحو الف عبد بين مأسور ومشترى من زعماء السواحل من رأس بوجادور الى رأس برانقة التى كشفها الرحالون سنة ١٤٤٢ . وقد عومل هؤلاء العبيد معاملة رفيقة فى عرف تلك الايام . اذ كان سادتهم يعنون عناية دقيقة بتعليمهم عقائد المسيحية ويستخدمونهم أحيانا للترجمة فى البعثات التالية ، واتسعت تجارة الرقيق بعد ذلك فبنى الامير هنرى معقلا ومصنعا مخصصين لهما على جزيرة ارجيوم ، فكان هذا المصنع اول معهد أوربى للاتجار وراء البحار

« ولما رأى الامير ان الكشوف التى أشرف عليها عادت ذات قيمة تجارية مجدية حصل على رخصة من الملك اخيه باحتكار التجارة مع سواحل غانة وأراد مع ذلك ان يجعل لمغامرات غانة صفة دينية محبوبة فحصل من البابوات المتعاقبين على براءات الغفران لكل من عمل فى الكشوف الافريقية كما حصل على امتياز منهم بحق التبشير بالديانة

المسيحية بين الزنوج : وقد كانت عادت الالتجاء الى البابوات فى مسائل الكشوف وراء البحار تقليدا دبلوماسيا هاما من تقاليد ذلك العصر أسفر فيما بعد عن مآزق مضـــحكة يوم اشتركت اسبانيا وغيرها من الامم فى هذه الكشوف البحرية ، وانتفع بها الامير هنرى فى تحقيق برنامجه الاساسى الذى كان يبتغى به اخراج البرتغال من مشاكل الســياسة فى شبه الجزيرة الاندلسية وفى القارة الاوربية برمتها ، كى تشتغل بما هو أوفق لابنائها الملاحين بناة السفن وأحرى أن يتيح لهم السبق على امم أكبر منهم واقوى »

ووصل المؤلف أخبار هنرى الملاح بأخبار أقدر الكشافين بعد وفاته وهو بارتلميوดياس Bartholmeu فقــال : « ان المعروف عن دياس جد قليل ، فليست له صورة محفوظة ولم تبق من رحلته أخبار مفصلة ، ولعله كان من أصـــل وضيع كما كان أكثر الملاحين فى زمنه ولكنه كان ولا ريب ملاحا عظيم القدرة والبراعة لان فاسكو دا غاما Vasco de Gama حرص بعد عشر سنوات أشد الحرص على الاهتداء فى رحلته بهداية ارشاده ووصفه ، ونحن نعلم اليوم ان تجـاربه كان عليهـا المعول فى تركيب اسطول داجاما وتزويده بمعدات الملاحة

« .... وكان لدياس نصيبه من يمن الطالع كما كان له نصيبه من القدرة والبراعة . فانه كان على خط عرض خليج والفش Walfisch حين هبت على سفينته عاصفة قذفت بها بعيدا من مرأى الارض ثلاثة عشر يوما حاول بعدها ان يقتفى أثر الميناء ليقترب من ساحل افريقية الغربى فاذا به يرسى على خليج موصل فى المحيط الهندى المنشود ، وهم أن يتسـابع رحلته لولا أن رجاله تعبوا وملوا وبدت عليهم بوادر الشغب

والتمرد ، ورأى أن سفينتيه أصغر وأضعف عدة وزادا من أن يدفع بهما الى المغامرة فى المجهول ، وكان قد ترك أزواده فى خليج والفش فوافقهم على العودة اليها للقفول من ثم الى الوطن ، وكانت رؤيته للراس الكبير الذى خرج للبحث عنه عرضا فى أثناء الطريق ، وسماه كما قال مؤرخه باروس Barros رأس الاعاصير ، وانما كان الملك هو الذى غير هذا الاسم وسماه راس الرجاء بعد أوبة دياس

وتستطرد الاخبار من قصة دياس الى قصة أكبر الكشافين بعده فاسكو دا جاما Vasco de Gama صاحب العبارة التى لخصت أغراض الرحالين الاوربيين فى كلمتين : « ابازير ومسيحيين . ويقول المؤلف فى استطراده من حيث انتهى الى رأس الرجاء : « انها قضى لها أن تظل راس الرجاء المجتنب بضع سنوات . لان طرق الهند قد بدا انها مفتوحة ولكن الرحلات اليها ليست مما تقدم عليه الممالك الصغار بغير روية وتدبر ، وكان الملك قد شغل بالمتاعب السياسية ومنازعات الوراثة ، ثم ازدادت المشكلة تعقيدا بعودة السفينة ـ نينا ـ سفينة كولمبس الى نهر التاجوس فى شهر مارس سنة ١٤٩٣ وركابها يزعمون أنهم بلغوا بها الى الشرق الاقصى من السواحل الاسيوية ، فاذا صدق كولمبس وجماعته فقد ذهب الشطر الاكبر من رحلات البرتغاليين فى نحو قرن كامل سدى على غير جدوى ، وافلتت الغنيمة التى لاح للبرتغاليين انها فى قبضة أيديهم فآلت الى أيدى الاسبان . وهى الحرب اذن لا محالة ... ولكن البرتغاليين لم تخدعهم رواية كولمبس حقبة طويلة بل شغلتهم بمحاولات شحيحة يرمون بها الى الحيلولة بين الاسبان والاسترسال فى الكشوف ، ولم تنعقد عزائمهم على

تسيير اسطول الى الهند قبل سنة ١٤٩٥ ولم يخرج الاسطول في رحلته الا في سنة ١٤٩٧ وهو أسطول فاسكو داجاما الذي كان يتألف من سفن أربع ، ثلاث منها من ذوات الشراع المربع والرابعة من مراكب السفر معدة للكشف وحمل البضائع التجارة »

ويقول المؤلف بعد ذلك « ان داجاما مر بأماكن عدة على الساحل الشرقي من القارة الافريقية لتموين السفن بالماء والوقود والتقط في ميناء (ملندى) الملاح المسلم ابن ماجد الذي شاء الحظ أن يكون من نوابغ عصره في فنون الملاحة الفلكية فاستطاع بمعونته أن يعبر المحيط الهندى الى ميناء قليقوت أحد المراكز المشهورة لتجارة الابازير فقوبل هنالك مقابله لاتبشر برجاء كبير ، وكانت حمولته من الحلى الصغيرة والانسجة الصوفية بضاعة مزجاة في الاسواق الهندية ، ووجد حاكم قليقوت قليل الرغبة في التخلى عن علاقاته المجدية بالعرب الذين كان منهم عنده جالية من التجار بذلت غاية جهدها لاقناعه بالاعراض عن مطالب البرتغاليين . ولكن داجاما قد استطاع بعد الالحاح والمشقة ان يجمع مقدارا من الفلفل والقرفة عاد بها الى بلاده وبدأت من ثم قصة الدسائس الاوربية الطويلة مع امراء الهند الوطنيين ، واستغرقت رحلة داجاما سنتين قضى منها ثلثماية يوم على متن البحر وفقد مايزيد على ثلث بحارته على الارجح من اصابتهم بداء الاسخربوط »

يقول المؤلف بعد بيان حاجة الاوربيين الى الابازير : « ان انتشار تجارة الابازير في القرن الخامس عشر كان على اتصال وثيق بانتشار الاسلام غربا وشرقا منافسا للمسيحيين والهنود

اذ كان الترك العثمانيون يفزعون أوربة الشرقية وكانت قبائل أخرى من أواسط آسيا تزحف على الهند حيث قامت أسر متتابعة على عرش دلهى وتفرقت على الساحل الغربى الى مدينة (جوا) عدة ممالك يحكمها السلاطين المسلمون فلم تثبت من بقايا الدول الهندية غير مملكة (فيجاينجار) الى الجنوب، وكان الاسلام يمتد بحرا فى تلك الآونة وتستولى الجاليات من أبنائه على مراكز التجارة فى أفريقية الشرقية الى (موزنبيق) فى الجنوب . وراح التجار المسلمون ينشرون ، ديانتهم فى الهند الشرقية ويؤسسون ثمة امارات تعمل فى التجارة يستوى فيها على العروش أمراء من أمة الملايا بالنسب ومن المسلمين بالعقيدة يشتغلون بتجارة الابازير فى أهم الجزر التى تخرجها ، وحينما ذهب المسيحيون الاوربيون شرقا وجدوا المسلمين سبقوهم هنالك حتى لم يبق من تجارة الابازير الى سنة ١٥٠٠ شىء فى غير أيدى المسلمين

ثم يستطرد المؤلف الى ابتداء الغزوات البرتغالية فيقول بعد اشارة مجملة الى رحلات المبشرين فى الشرق الاقصى :
« ان القائد «البوكرك» لما ذهب فى رحلته الاولى الى الهند سنة ١٥٠٣ لم تكن للبرتغاليين محلات يترددون عليها غير خانات ينزل بها عمال الملك أو وكلاء الشركات التجارية لشراء الابازير من الاسواق الساحلية ، ويعود اليهم بين عام وعام اسطول مسلح يبحر من لشبونة ليجمع منهم ما حصلوه خلال العام، وعلى أمراء تلك الجهات يتوقف بقاء تلك الخانات ونجاحها فلا مناص للبرتغاليين لتحويل تلك المواقع المتخلخلة الى معاقل ثابتة ودول مسيحية واسعة من الاعتماد على اسطول ثابت فى المحيط الهندى ، ولا مناص لذلك الاسطول من مقر بحرى

موفور الوسائل لتموين السفن واصلاحها وتزويدها بالملاحين والصناع الذين يحلون مع الزمن محل من يهلك من زملائهم بآفات الجو والمرض ، ولا مناص لهم مع هذا وذاك من حصون تعززها طوافات تسيطر على مداخل المحيط ومسالكه ، وعليهم ان يحولوا تجارتهم القائمة على قاعدة لشبونة البحرية الى سلسلة من المؤسسات التجارية والملاحية تغطى الشرق الاوسط من اقصاه الى أقصاه ، وكانت هذه هى الخطة الجيئة الطموح بتكاليفها الفخام التى فرضها البوكوك على حكومته الشحيحة بعد ان أصبح فى سنة ١٥٠٩ خلفا للقائد الميدا almeida فى الولاية على تلك الجهات »

◻

الى هنا يمكن أن يقال اننا راينا أمامنا أسباب الاستعمار الواقعة فى دور التنفيذ بين الاحجام والاقدام والمثابرة على الخطط أو العدول عنها بحكم الطوارىء والمناسبات

وهذه الاسباب الواقعة فى دور التنفيذ أولى بالالتفات اليها من الاسباب النظرية المستخلصة من الواقع حسبما يراه الباحث المتفلسف تطبيقا لمذهبه أو رأيه فى مجرى التاريخ

فكثيرا ما تضللنا الاسباب النظرية عن النتائج العملية ، لانها تعطينا عن الحوادث صورة غالطة تجعلنا نتوقع ما لا يتوقع ونستغرب مالا غرابة فيه ، وتليح لنا أن فى الامر تناقضا حيث ينبغى أن نرى الامر على استقامة وسواء مع مايقتضيه الواقع والتفكير الصحيح

والاسباب النظرية التى ينتحلها المتفلسفة لمعظم الحركات الكبرى كحركة الاصلاح أو كالثورة الفرنسية أو رحلات

الكشف أو انقلاب الصناعة توهمنا أن هناك شخصا يعيش ثلثمائة أو اربعمائة سنة ويباشر العمل فيها جميعا لغرض واحد يعلمه منذ البداءة وينبغى أن تكون أعماله كلها على اطراد مع ذلك الغرض ، والا وجب أن نشك فى الحوادث أو نشك فى النتائج والمقدمات

فهذه الصورة المغالطة لاسباب الاطوار التاريخية تضللنا عما كان وعما يكون ، بل تضللنا عما هو واقع بين أيدينا بالقياس الى مايشبهه من الاطوار الغابرة

ولو اعتمدنا على هذه الصورة الغالطة فى تعليل اسباب الاستعمار لتمثلنا امامنا « تجارة الابازير » شخصية متيقظة متربصة تسوق الناس أمامها سوقا الى تحقيق مرامها فى مدى قرنين أو ثلاثة قرون فلايملك الناس امامها ارادة يصيبون فيها أو يخطئون ولا يحتاجون الى تفكير المفكر ولا اقناع المقنع امام تلك الشخصية التى تقودهم قهرا على حسب البرنامج المرسوم ..

أما الاسباب الواقعة فى دور التنفيذ فنحن نعلم منها عمل الارادة وعمل الضرورة متجاورتين متساويتين فى كل حادث كبير أو صغير ، ونعلم منها انه مامن حادث يتم على وجه من الوجوه الا ومن الممكن أن يتم على وجه آخر لو سارت الامور مسيرا آخر فى بقعة قريبة أو بعيدة من الكرة الارضية

وما تقدم من قصة الاستعمار البرتغالى كاف لبيان أسباب الاستعمار الشرقى بين فعل الضرورة ونقل الارادة وبين الاصابة بالمصادفة والاصابة بالتقدير ، ولكن هذا كله لم يكن حتما لزاما لتحقيق وجود الاستعمار لولا ظروف اخرى لا عمل فيها لاحد من هؤلاء العاملين الفعالين فيما يبدو من قريب

ماذا لو وصل البرتغاليون الى الشرق والاساطيل التجارية الشرقية اقوى من أساطيلهم بتركيب السفن وبما تحمله من عدة وسلاح

وماذا لو انهزمت الاساطيل الشرقية مرة ثم عاودت الكرة فانتصرت فى الكرة الثانية ووقفت محاولات البرتغاليين فى خطوتها الاولى أو نكصت على عقبيها عند منتصف الطريق ؟

كل أولئك كان من الممكن القريب لولا اختلاف يسير هنا واختلاف يسير هناك لا يأتى من تدبير العاملين الفعالين ولا من وحى تجارة الابازير

ان وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى كان فى الواقع مرحلة مشكوك فيها من مراحل الاستعمار ولم يجعله مرحلة حاسمة ناجحة غير أمرين بعيدين من تسلسل الاسباب فى هذا السياق

أول هذين الامرين أن السفن البرتغالية كانت أقوى بتركيبها وسلاحها وخبرة ملاحيها وأقدر على القتال من سفن التجارة الشرقية بين سواحل الهند وسواحل القارة الافريقية

وثانى هذين الامرين أن سفن المماليك التى كانت قادرة على مساجلة السفن البرتغالية قد خرجت من الميدان بعد هزيمتهم فى مصر أمام الدولة العثمانية ودخول مصر فى حوزة تلك الدولة . فان سلاطين الترك لم تشغلهم تجارة البحر الاحمر كما شغلتهم حروب القارة الاوربية ولم تحفزهم البواعث العاجلة الى بناء الاساطيل خاصة لمحاربة البرتغاليين فى المحيط الهندى ايثارا منهم للغلبة على البنادقة فى البحر الابيض وهم أعداء البرتغاليين وأعداء الترك العثمانيين على السواء

ان مقدمات الاستعمار فى الشرق قد تمت يوم وصل البرتغاليون الى المحيط الهندى واعتمدوا على القوة فى حماية طرق الملاحة وموانى التجارة ، ولكنها تمت من جانب واحد هو جانب الغرب ، وكان من الجائز أن تنقطع عن نتائجها لو انها صادفت فى الشرق قوة تصدها وتثنيها على عقبيها

الا أن الاحوال التى صادفها البرتغاليون فى الشرق لم تكن خليقة أن تصدهم عن سبيلهم أو تكف غيرهم من المنافسين لهم على اللحاق بهم ، فاتصلت المقدمات بنتائجها على النحو المعروف لنا فى التاريخ

لقى أمراء الشرق طلائع الكشافين بالريبة التى يلقى بها كل غريب مجهول المقاصد والاسرار ، وعرفوا مقاصدهم التجارية والدينية فلم يحفلوها ولم يروا بينهم وبين تجار العرب وملاحيهم من فارق الا انهم خبروا هؤلاء ولم يخبروا أولئك الطارئين من الغرب البعيد

فلما ظهر أولئك الطارئون بقوتهم فى البحار وانكشف من أغراضهم انهم لايقنعون بما دون السيطرة والاحتكار تنبه الامراء الغافلون وسعى ملك قليقوت ـ أقربهم صلة بالبرتغاليين ـ الى التحالف عليهم مع أعدائهم من مماليك مصر ورؤساء البندقية ، وكان هؤلاء يسعون مثل سعيه ويحذرون الطارئين الواغلين مثل حذره ، فاسفرت مساعيهم عن استعداد المماليك بأسطول كبير ساعدهم البنادقة فى بنائه لمنازلة أسطول البرتغال ، والتقى الاسطولان عند بمباى فكانت الغلبة فى هذه المعركة للمماليك ، ثم تجددت المعركة وجمع لها البرتغاليون كل ما استطاعوا من السفن الممتازة بأجهزتها وأسلحتها وخبرتها بالبحار المختلفة فانهزم المماليك فى هذه الجولة

هزيمتهم الاخيرة (سنة ١٥٠٩) لانهم فقدوا ملك مصر بعدها حين افتتحهـــا السلطان سليم الاول العثمانى بعـــد تسع سنوات (١٥١٧)

ولقد كان من المتوقع أن يعاود المماليـــك الـكرة لانتزاع السيادة على المحيط الهندى من ايدى البرتغاليين فـــلا تتم لهم الغلبة عليه لولا ما أصاب المماليك من هزيمة لم تقم لهم من بعدها قائمة ، بل كان من الجائز أن يتصدى العثمانيون لمنازعة البرتغاليين لو كانت ملاحة المحيط الهندى تعنيهم كما كانت تعنى المماليك ، ولـكنها مصادفات التاريخ التى لا تقع للغـــالبين ولا للمغلوبين فى حسبان ، وهـــذه احدى تلك المصـــادفات ..

وما هو الا ان ظفرت دولة غربية بالسيادة على طريق الهند حتى بدأ بين الدول الغربية ذلك السباق الذى تعاقبت اشواطه شوطا بعد شوط زهاء اربعة قرون ، وانتهى الى مداه أو كاد فى منتصف هذا القرن العشرين



سباق الاستعمار

من السهل أن نتخيل صـدى الخبر الذى شاع فى أوربة عن عودة الاسطول البرتغالى بالبضائع الشرقية بعـد طوافه حول القارة الافريقية واهتدائه الىطريق الهند التىدامالبحث عنها زهاء عمر انسان من المعمرين

لقد أوشك أن يطلق الحكومات والبيوت التجارية فى سباق طائش الى الهند الموعودة بغير قيد ولا ضابط . فاذا كان هذا السباق الطائش قـد ثاب الى شيء من التؤدة فما كان ذلك عن حكمة ولا روية ، ولـكنها شواغل الفتنالداخلية والحروب العـامة والمنازعات على كشوف الاميركتين قـد أرجأت ذلك السباق الى حين وصرفت القوم الى الخطر القريب اضطرارا فصبروا حقبة أخرى عن الامل المنظور الذى اقتربوا منـه بعد طول اصطبار ..!

وقد كان السـباق بينالدولتين الرائدتين فىميدان الكشوف خطبا يسيرا من أول أمره الى نهايتـه ، لان هاتين الدولتين ــ وهما اسبانيا والبرتغال ــ كانتا فى كنف الرعاية البـابوية تأتمران بأمرها وتستمدان النفوذ منها فى الخلاف بينها وبين الدول الاوربية الاخرى . فاجتهد الفـاتيكان اجتهـاده فى التوفيق بينهما وقسم المواقع التى تنكشف لهما حصـتين محدودتين على قاعدة الكشف التى أعتمدت عليها كلمنهما ، فجعل لاسبانيا جميع المواقع التى تنكشف على قاعدة السفر غربا للوصول الى الهندوالصين ، وجعل للبرتغالجميع المواقع

التى تنكشف على قاعدة الوصول الى الهند فى طريق الطواف حول القارة الافريقية ، وتلحق بها البرازيل ، واقيم بين الدولتين خط فى وسط المحيط الاطلسى ملحوظ فيه ذلك التقسيم

ثم انتهى السباق بين الدولتين بتوحيد العرشين ، فانزوت البرتغال من مجال الكشف والاستعمار وآلت السياسة الاستعمارية كلها الى العاصمة الاسبانية

ثم دارت الدائرة على اسبانيا بعد هزيمتها البحرية فى معركة « الارمادا » المشهورة ، فكانت هذه الهزيمة احدى المراحل الحاسمة فى تاريخ الاستعمار ، بل فى تاريخ العصر الحديث ، وبرزت فى المجال ثلاث دول أوربية لم يكن لها شأن فيه الى ذلك الحين

استقلت هولنده من سيطرة أسبانيا فنازعتها السلطان فى التجارة وفى التبشير ، لان التجارة الهولندية قبل الاستقلال كانت مسخرة للدولة الغالبة فانطلقت من قيودها طامحة الى السيادة فى ذلك المجال المشترك الذى عرفته يوم كانت مسخرة فيه ، واملى لها فى طموحها انها كانت تنازع السادة الاسبان فى العقيدة كما تنازعهم فى السيادة الاسبانية ، لانها كانت تدين بمذهب « كلفن » وتنكر مذهب الكنيسة البابوية وتنكر معه حق الانفراد بالدعوة المسيحية

واكبر من هذا الاثر فى مجال الاستعمار ظهور الدولة الفرنسية فى مكان الزعامة بين دول القارة الاوربية بعد خروج هذه الزعامة من ايدى الدولة الاسبانية ، فان فرنسا أصبحت اكبر دول القارة مستعمرات فى آسيا وافريقية مع مستعمراتها فى أمريكا الشمالية ، واصبحت كذلك وريثة الاسبان فى قيادة

الـكتلة العالمية ولم تزل تتشبث بهذه القيادة فترة غير قصيرة بعد فصل الدولة والـكنيسة

واكبر من هذين الاثرين معا فى مجال الاستعمار ان الجزر البريطانية انفردت بالسيادة على البحار بعد هزيمة الاسبان البحرية ، فلا مبالغة اذا قيل ان بريطانيا العظمى قبضت على زمام السياسة الاستعمارية فى العالم منذ معركة « الارمادا » الى مابعد الحرب العالمية الثانية فى منتصف القرن العشرين

وكانت بريطانيا العظمى تنافس فرنسا القوية ولا تنافس هولندة الصغيرة ، بل لعلها ـ لولا بعض الخلافات العارضة ـ قد اخذتها تحت جناحيها لتعمل باسمها كلما دعا الامر الى مقابلة الدعوى الفرنسية بدعوى أمة اخرى من الامم الاوربية ، ومن ذلك انها استولت على الاملاك الهولندية فى الشرق بعد احتلال الفرنسيين لهولندة أثناء حروب نابليون ، لانها كانت تحارب الفرنسيين وتحالف الهولنديين

على أن هولنده ـ مع صغرها بالقياس الجغرافى والعسكرى ـ توضع فى الصف الاول بين المستعمرين الاسبقين ، وتعتبر خطتها فى التسلل الى المستعمرات بمثابة التجربة التى استفاد منها اللاحقون بها فى الزمن ، ومنهم الانجليز

ومن فكاهات الحوادث ومناقضات الصروف أن دعاة الانجليز الى الاستعمار انما كانوا يأتمون بكتاب الفه الهولندى لنشوتين linschoten (سنة ١٥٩٦) يصف به كشوف البرتغال ويقول مترجمه الى الانجليزية : « عسى أن تعمل هذه الترجمة الحقيرة عملها فى أمتنا الانجليزية فتبعث فيها رغبة فى مزيد من شرف الاستعلاء بين الامم بالسيادة العالمية بفضل مانبنيه من الجدران الخشبية » ... يعنى الاساطيل

وتعتبر هولندة على صغرها شيخة المستعمرين فى كثير من وسائل الاستعمار وتمهيداته من قبيل التبشير والاستشراق واستخدام المعاهدات والمحالفات فى كسب الحقوق الشرعية ، وهى التى سنت للمستعمرين اللاحقين بها تحويله من عهدة الشركات الى عهدة الدولة ، فأنشأت مجالس الحكم الى جانب مكاتب الادارة ثم جعلته نظاما حكوميا تغلب الصفة الرسمية فيه على صفة الاعمال الشعبية

وانما الجأ الدول الى انتزاع العمـــل من ايدى الشركات انها احتاجت الى الاعتماد على القوة لاكراه أبناء البلاد الشرقية على قبول معاملتها كما احتاجت الى القوة فى منافسة بعضها لبعض وحماية الطريق بين مناطق النفوذ ، وقد اضطرتهـــا طبيعة الاحتكار التى لا تفارق الاستعمار الى كف الشركات عن التنافس فيما بينها على رفع اثمان الشراء وخفض أثمان البيع مما ذهب بربح التجار وربح الدولة وكاد أن يقضى على الحركة فى مهدها بعد فترة الرواج والازدهار الاولى ، وقد اثار هذا الرواج حسد الحاسدين بين ابناء الامة الواحدة فهب فريق منهم يطلب من الحكومة أن تضع ايديها على شركات التجارة الخارجية واعانه على ذلك سوء السمعة الذى فشا حول أثرياء التجارة الجديدة وضجة الشكاية من مظالمهم فى معاملة أبناء الشرق ومعاملة ابناء بلادهم العاملين فى شركاتهم ، وهب فريق آخر الى مزاحمة أولئك الاثرياء بزيادة الاثمان التى يشترون بها بضائع الشرق وخفض الاثمان التى يبيعونها بها فى أسواق أوربة وغيرها من الاسواق ، فلم يبق فى الدول المستعمرة من يعارض تحويل النظام بجملته من عهدة الشركات الى عهـدة الحكومات ، وكانت سوابق هولنده أول تجربة لحكومات الغرب فى هذا التحويل

وسرعان ما اطردت الدول الثلاث ـ هولنده وفرنسا وبريطانيا ـ فى سباقها الاستعمارى حتى أدركتها على اعقابها كل دولة اوربية ثبت لها كيان قومى فى محيط السياسة العالمية ، فلم يتخلف عن هذا المضمار غير الدول التى شغلتها مسألة الوحدة الداخلية فى طور التكوين ، وكل دولة أوربية كانت مشغولة بمسألة من هذه المسائل بعد الشوط الاول من أشواط الاستعمار

ومن ثم اختلطت صبغة الفخر ، وصبغة المظهر ، بهذا السباق كما تختلط بكل سباق ، فأصبحت المجاراة فيه مطلوبة لذاتها غير مشروطة بالمنفعة المرجوة منها ، وأصبحت حيازة الارض المستعمرة علامة من علامات المساواة بين الدول الكبار ، تتطلع اليها كل دولة ناشئة ملكت سيادتها وقرنت بينها وبين السيادة على سواها ، وسرت العدوى الى كل دولة نشأت فى أوربة أو فى احدى القارات الاخرى ، فما هو الا أن تم لالمانيا وايطاليا كيان قومى حتى توثبت كلتاهما للدخول فى المضمار ، وكذلك صنعت الولايات المتحدة فى الامريكتين ، وكذلك صنعت اليابان فى آسيا وجعلت من فخرها الاسيوى ان تكون أحق بالقارة العريقة من الاوربيين والاسيويين

وظلت غايات السباق تكثر كلما كثر المتسابقون حتى استنفدت الشرق كله من أقصاه الى أوسطه الى أدناه ، وكاد الزحام على الشرقين الاوسط والادنى أن يغطى على الزحام الاصيل الى الهند والصين وجزر الملايا التى اشتهرت باسم الشرق الاقصى بعد تقسيم الشرق كله على حسب المسافات ، وتعاظم اهتمام المستعمرين بالشرقين الاوسط والادنى لاغراض شتى تستوعب جميع أغراض الاستعمار

« أولا » لان الشرقين الاوسط والادنى لازمان لحماية الطريق الى الشرق الادنى

و « ثانيا » لانهما فى أول الامر كانا قبلة الطامعين لم يبحثوا عن قبلة غيرهما الا لعجزهم عن الاستيلاء عليها . فلما تألبتْ مطامع الاستعمار على الشرق كله عادت اليهما أنظار الناظرين من قديم وجديد ، ولا سيما المتأخرين فى سباق الاستعمار ممن دخلوا فى الحلبة بعد فراغ السابقين الاولين من تقسيم غنائم الهند والصين والجزر الشرقية

و « ثالثا » لان أقطار الشرق الادنى وبعض أقطار الشرق الاوسط كانت كلها بقايا تابعة للدولة العثمانية التى اصطلحت الدول الكبرى على تسميتها باسم « الرجل المريض » المتفق على تقسيم تركته حلا لما سموه يومئذ بالمسألة الشرقية ..

و « رابعا » لان بلاد الشرقين الاوسط والادنى اسواق صالحة لترويج المصنوعات الحديثة ، مذ كانت بلادا عمرتها الحضارة عدة قرون وعودت أهلها اقتناء اللوازمات والكماليات من مطالب الامم المتحضرة ، فهى بهذا الاعتبار أنفع للدول الصناعة من مستعمراتها فى القارة الافريقية وبعض مستعمراتها فى القارة الاسيوية

و « خامسا » لان الحصول على خامات المواد الصناعية ميسور فى بلاد الشرقين الاوسط والادنى ، وتشاء المصادفات أن تظهر فى هذه البلاد ينابيع النفط الذى يعول عليه أصحاب المصانع وأدوات المواصلات

و « سادسا » لان الدول التى تنتحل الدفاع عن مذهب من المذاهب تجد الذرائع ممهدة لديها للتدخل فى شئون

الشرق الادنى باسم الدفاع عن أبناء مذهبها او الدفاع عن الاماكن المقدسة ، ويكفى لبيان سعة النطاق الدولى الذى تعمل فيه هذه الذرائع ان نذكر ان حرب القرم التى اصطدمت فيها روسيا وانجلترا وفرنسا وتركية وسردينية بدأت بخلاف على رعاية معهد من معاهد بيت المقدس يدعى الروس حق الاولوية فى رعايته والاشراف عليه

و « سابعا » ان الرقعة الوسطى بين القارات الثلاث موقع من أخطر مواقع الدفاع والهجوم فى الحروب الكبرى ؛ وهذا هو الموقع الذى تقيم فيه أمم الشرقين الاوسط والادنى وتتألب حوله كل تلك المطامع والتعلات

□

ويبدو من مراجعة هذه الظروف المتشابكة ان بلاد الشرقين الاوسط والادنى أوفر مواقع الارض حظا من المطامع التى تغرى بالاستعمار والتعلات التى يتذرع بها المستعمرون للإقدام عليه ، فلو لم تكن لهذه الظروف المتشابكة ظروف أخرى تكافئها وتدفع شرورها لكانت مهمة الاستقلال اشق المهام على طلاب الاستقلال من الشرقيين فى تلك البلاد

الا أن الواقع ان الظروف من الجانبين تتكافأ وتتعادل ويرجح منها جانب الاستقلال على جانب العدوان كلما تقدم الشرقيون واشتد النزاع على بلادهم بين المستعمرين.

وفى الكرة الارضية بلاد مستعمرة كثيرة تسكنها امم على درجات متفاوتة من التعلم والاستعداد للحكم المستقل وعراقة النسب الى الحضارات الانسانية ، وليس بينها امة أحق بمبدأ تقرير المصير من أمم الشرقين الاوسط والادنى. فاذا اضطرت

هيئات الامم العالمية الى الاعتراف بمبدأ تقرير المصير فلا سبيل لها الى حرمان الامم الشرقية من حقوقه ومستلزماته فى عرض العلاقات العالمية ، كائنا ما كان باعث الاعتراف من نية الصدق والوفاء أو نية الختل والنفاق

وانه لمن الهين على ضمائر المستعمرين أن يمجدوا كل حق من حقوق تقرير المصير ومستلزماته لو لم تكن ثمة ضرورة اخرى تقسرهم الى الاعتراف بها الى جانب ضرورة الاعتراف بالحقوق والمستلزمات

ولكن الضرورة الاخرى قائمة على الرغم من الضمائر والرغبات ..

وتلك الضرورة الاخرى هى خطر النزاع بين المستعمرين من الكتلتين الشرقية والغربية وخطر النزاع بين اعضاء كل كتلة على حدة ، فلا توجد مصلحة لدولة مستعمرة توازن الخطر على الدول جميعا من صدمات النزاع المتجدد وكوارث الحرب العالمية وتفاقم النذر باشتعالها فى كل ازمة من ازمات القضايا الوطنية أو كل مشكلة من مشاكل السياسات المتعارضة فى المعسكر الواحد او فى المعسكرين المتناجزين ، وأهون من ذلك أن تستقل امم الشرقين الاوسط والادنى وان توكل مسائلها الى حيلة الساعة أو وحى المصلحة العاجلة لحظة بعد لحظة على حسب الطوارىء والمناسبات

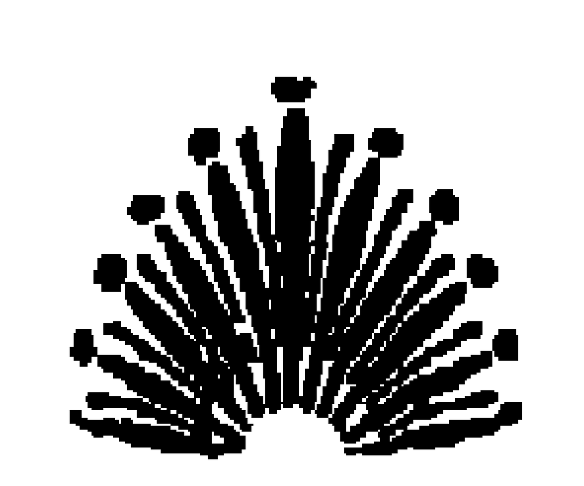
وغنى عن القول ان « حيلة الساعة » لاتمطى المستعمرين طمأنينة الى الشرقين الاوسط والادنى يستقرون عليهما . فغاية ما فى حيلة الساعة انها تعطيهم طمأنينة ساعة ، وكأنهم بحثوا عن حيلة طويلة الاجل تسعفهم عند الحاجة بطمأنينة

مثلها فلم يجدوا أنفع لهم من دولة يصنعونها بأيديهم ، ولا يزالون على ثقة من حاجتها اليهم ، فهم يعطونها قرارها وهى تعطيهم مايفتقرون اليه من قرار

وكانت دويلة اسرائيل

وكانت هذه البدعة آخر شوط من سباق الاستعمار فى الشرقين الاوسط والادنى

فما أعجب هذه الوريثة النابيــة لمملكة اورشليم الاولى قبل سبعة قرون !



أنواع المستعمرات

من المعروف اليوم أن المستعمرات انواع

وانما جرى البحث فى انواع المستعمرات عندما شـــعر المستعمرون انهم لايستطيعون أن يعاملوا البلاد المغلوبةمعاملة واحدة فقسموها الى درجات وكان معنى التقسيم الىدرجات انها تزيد أو تنقص فى بعض الحقوق

فـكان الاعتراف بأنواع من المستعمرات بمثابة الاعتراف الصريح بأنواع من الحقوق

اما فيما عدا ذلك فقد كان كل مايعرف للارض المستعمرة أنها بلاد مملوكة لسيد مسلط عليها قادر على التصرف بهـــا وبأبنائها تصرف السيد بالعبيد ، لا يحاسبه احد فى شأن من شئونهم ان لم يحاسب نفسه عليه

نعم ان المستعمرين عاهدوا بعض المستعمرات ولم يعاملوها معاملة البلاد المفتوحة بالسيف ، ولـكنهم فى معظم الاحوال عاهدوا تلك البلاد ليتخذوا من حقوق العهد حجة يقصون بها المزاحمين لهم من المستعمرين الاخرين ، أو اكتفوا بمعاهدتها لانهم لم يشعروا بالحاجة الى فتحها ، لانهم يرعون لها حقوقا يحترمونها ويحترمون أصحابها .

وحدث فى بعض المستعمرات الاولى أن ذوى الرأى بحثوا فيما يحق للرعية الوطنية من المعاملة الشرعية تحديدا لسلطان الولاة أو تحديدا لسلطان الملوك والامراء

غير أنهم نظروا فى هذا الامر لان حقوق الملوك كانت فى القرون

الوسطى محل بحث بين الفقهاء بالنسبة الى حقوق الله ، ولان الرعايا الاوربيين هم الذين نقموا من الملوك اطلاق سلطانهم وطغيان جبروتهم على نبلاء قومهم وعامتهم ، فلما وجد لهؤلاء الملوك رعايا من غير الاوربيين فى الامريكتين بحث الفقهاء فى حقوق هؤلاء الرعايا وتساءلوا : هل يسرى عليهم مايسرى على الرعية الصالحة من الاوربيين أو أن لهم حكما خاصا يجيز للملوك والولاة فى معاملتهم ماليس يجوز للراعى الصالح فى معاملة الرعية الصالحة.

وجاء البحث « أولا » من فقهاء الدين لانهم نازعوا الولاة سلطانهم فى معاملة ابناء البلاد الاصلاء ، وأرادوا أن توكل اليهم سياسة أولئك القوم لهدايتهم وتبشيرهم وادخالهم فى زمرة « الرعية الصالحة » التى تجب لها رعاية حق الدم وحق المال

واتفقت آراؤهم بعد الخلاف الطويل على أن التدين بالمسيحية شرط لاستحقاق صفة الرعية الصالحة ، فاذا عومل الوطنيون غير المسيحيين بشىء من الهوادة فانما هى الهوادة التى يستحقونها فى سبيل اقناعهم بقبول التبشير

وبديهى ان هذا البحث انما كان فرعا للبحث الاصيل عن حقوق الرعية الصالحة ، ولم يكن له باعث من النظر فى انصاف المغلوبين ، وبخاصة من كانوا مغلوبين منهم بقوة السلاح

فالاستعمار قد نشأ ولا محل فيه للاعتراف بحقوق أو مبادىء متفق عليها لمعاملة المستعمرين ، ولكنه كان يضطر الى التسليم بشىء من حقوقهم كلما تبين له أن معاملتهم على سواء لا تتأتى من الوجهة العملية ، وقليلا ما دخلت القيم الانسانية والاخلاق المثلى فى حسابهم يوم اخذوا فى التمييز بين اتباعهم ، وانما كان المرجع فى ذلك الى النعرة العنصرية التى

قادتهم الى اختراع امانة « الرجل الابيض » تسويفا لحكم الشعوب واغتصاب البلاد ... فكان نظام الدومينيون ـ ارقى النظم الاستعمارية ـ قسطا محتكرا للبلاد التى يسود فيها الرجل الابيض من جنس الدولة الحاكمة ، وكان بعد المسافة شفيعا آخر للسماح بنظام الدمينيون وتخويل الحكومات المحلية ضروبا من السلطة فى المسائل الحاضرة التى لا يتيسر الرجوع فيها الى راى الدولة الحاكمة فى العاصمة الكبرى ، وكان خطر الانفصال شفيعا مهما مع هذين الشفيعين لزيادة نصيب الدومينيون من حقوق الاستقلال

ويلى الجنس الابيض فى حقوق الاستقلال وحدوده اجناس السمر والصفر والسود على ترتيب درجاتهم من مظاهر الدولة فى ماضيهم البعيد أو القريب

فالامم التى كانت لها عروش مؤسسة وحكومات قائمة كانت تظفر منهم بنصيب من الحكم الذاتى يستبقى العروش لامرائها والحكومة لرؤسائها حيثما تيسر استبقاؤها بغير خطر على نفوذ الدولة المستعمرة

ومن لم تكن لهم دول وحكومات خولوهم طائفة من مناصب الرئاسة فى الحكومة على قدر نصيبهم من الحضارة والقدرة على ولاية المناصب المأمونة ، ولا يفوتهم بذلك أن يجتذبوا اليهم زمرة المرشحين للولاية حيث لا حاجة بهم الى اجتذاب جمهرة الرعية

فاذا كانت البلاد المغلوبة خلوا من الدولة القديمة ومن الطبقة المرشحة لمناصب الرئاسة فغاية ماينالة ابناؤها أن يتولوا مناصب المرؤسين على كثرة او قلة حسب انتشار الوظائف فى نظام الحكومة العصرية ، ومن غلبت بينهم نظم القبائل والعشائر

تركوا لهم رئاستهم الموروثة وكسبوا بذلك ولاء الرؤساء وسهولة الطاعة والانقياد من المرؤسين

وسار المستعمرون سيرهم البطىء فى توسيع هذه الحقوق وترقية هذه النظم ، فلم يرفعوا مستعمرة من مستعمراتهم درجة الا على اضطرار وبعد جهاد وانكار

ولكن بلاد « الرجل الابيض » كانت تظفر على الدوام بالقسط الاوفى من توسيع الحقوق وتوفير معالم الاستقلال، فاصبح من حق الدمينيون بعد الحرب العالمية الاولى ان توفد السفراء عنها الى الدول الاجنبية وان تعلن الحيدة فى الحرب او تعلن الاشتراك فيها باختيارها ، وازداد نصيب المستعمرات الاخرى على نسبة الزيادة فى حقوق الدومينيون الخارجية والداخلية ، فندرت بينهن أمة بقيت على ما كانت عليه قبل الحرب العالمية

الا أن الجديد فى نظام الاستعمار هنا انما هو الجديد من جهة المبدأ لا من جهة الزيادة فى عدد الوظائف ودرجات الحكومة الذاتية ..

ان الحرب العالمية الاولى كانت حدا فاصلا بين عهدين واضحين فى تاريخ الاستعمار ، لانها ازالت الاستعمار من حيث « المبدأ » وابقت ما بقى منه على أساس جديد ينكر دعوى الملك ولا يعترف لدولة من الدول بحق تدعيه لنفسها فى حكم مستعمرة متقدمة او متأخرة ، مالم يكن ذلك بالوكالة عن الامم الانسانية ..

وكذلك قام ميثاق الامم بعد الحرب العالمية الاولى على بطلان الاستعمار واحترام حق تقرير المصير ، ومعنى تقرير المصير ان الاستقلال حق طبيعى لكل أمة تحكم نفسها او

تحكمها غيرها . فمن كانت من الامم مستقلة معترفا لهـــا بالاستقلال فهى صاحبة السيادة على نفسها ولا سيادة لاحد عليها ، ومن كانت سيادتها بيد غيرها أو كانت موقوفة لعلة عارضة تحول بينها وبين ولاية حق السيادة فيها فهى فى ذمة الانسانية تختار لها من يحكمها الى أن تملك زمام سيادتها ، وليس للدولة المختارة لحكمها حق فى تسخيرها واستغلالها او مزية تمتاز بها على الدول الاخرى ، وانما تعطى الدولة الحاكمة من حقوق الولاية بقدر ماتحمله من المسئولية أو بقدر مايمكنها من النهوض بأعباء ولايتها

واستحدثت للنظام الجديد اسماء تناسبه غير الاسماء التى سلفت فى أيام الاعتراف بحق الاستعمار ، فحل الانتـــداب والوصاية محل الحماية ، وتركت الحمايات السابقة باسمائها الى أن تتفاهم الدول الحامية والبلاد المحمية على وضع من الاوضاع الحديثة ، وبات مفهوما بين أعضاء الميثاق ان العدوان على وطن من الاوطان انما هو خرق لميثاق الامم جمعاء ينبغى أن تمنعه الامم جمعاء ولا تنفرد بمنعه دولة حامية أو دولة محمية . فلا يتفق مع روح الميثاق ان تنفرد احدى الدول بحماية وطن من الاوطان الضعيفة ولو كان موكولا الى ولايتها

واتضحت الحدود على هذا النمط بين أنواع المستعمرات . فالانتداب للامم التى تملك السيادة ناقصة وينتظر أن تملك السيادة كاملة بعد فترة وجيزة ، والوصاية للامم التى تملك السيادة موقوفـــة الى زمن بعيــد أو لا تبلغ مبلغ السيادة لقصورها عن الحكم الذاتى واتقاء الخطر من اضطراب فيها

وتكفلت عصبة الامم بالاستماع الى شكاية الشاكين وتحقيق ما يحتاج منها الى التحقيق ، وامتنع على دولة أن تتعـــرض

لولايات دولة أخرى الا أن يكون تعرضها من قبيل المطالبة بالتحقيق فى خلل ادارتها وظلم ولايتها

وكم هذا كله من حيث المبدأ والعقيدة

وشتان بين المبدأ أو العقيدة وما يجرى فى الواقع ويعهده الناس بين الحاكمين من الاقوياء والمحكومين من الضعفاء

فقد بقيت المستعمرات وبقى الاستغلال وبقيت مظالم الحكم واستبيحت الاوطان عنوة وعجزت عصبة الامم عن حماية وطن واحد مستباح أو عقوبة دولة واحدة تتحداها جهرة وتستبيح ما حرمته فى الميثاق واقرها على تحريمه المعتدون

الا انه من قصور العقل فيما نعتقد أن يقال — مع هذا كله — ان تقرير المبدأ والسكوت عنه سواء ، وان العالم لم يستفد شيئا من النظام الجديد ولا يرجى أن يستفيد منه بعد حين . فما زالت المبادىء تخالف الوقائع فى تكاليف بنى الانسان من أمم أو آحاد ، وقديما عرف الناس ضياع اليتامى فى ذمة الاوصياء وعرفوا حيل المحتالين على القاصرين والمحجور عليهم من مستحقى الحجر أو غير مستحقيه ولكن محاسبة المختلسين والمحتالين على الرغم من هذا كله مبدأ مطلوب وتقريره فى المجتمعات غنم مكسوب ، والغاؤه بعد تقريره جريمة لاتفر من عقباها ولا تصلح الفساد المحذور بل تزيده وتغرى من يتجنبه بأن يجترىء عليه .

ولا يخفى ان المبادىء التى تتصل بعلاقات الامم كثيرا ما تظهر فى أوانها دليلا على اتجاه الوقائع الى تأييدها وتطبيقها وزاجرا لمن يخالفها ونذيرا له بما يصيبه من مخالفتها

ومصداق ذلك فى هذا المبدأ أن البلاد التى استبيحت خلافا

له واجتراء عليه لم يبق واحدة منهــا فى أيدى أصــــحابها المعتدين عليها .

فالبلاد التى اقتحمها النازيون والفاشيون ودعاة السطوة الحربية من اليابانيين قــد خرجت جميعــــا من أيديهم ولم يحصلوا منها على غير الخسارة والهزيمة وسوء القالة ، ولم يحصل مثل ذلك للدول التى قبلت المبدأ ولو بالاحتيال عليه

ولا يقال ان النازيين والفاشيين ودعاة السطوة الحربية قد اصابهم ما اصابهم لانهم مهزومون ساء بهم الحظ فأصــابهم جزاء القانون

فمن دلالات الواقع وتعزيزها للمبدأ أن تطبق الهزيمة على جميع من خالفوه

ومن دلالات الواقع فى جانب المنتصرين انهــم ــ بعــد انتصارهم ــ لم يقدروا على انكار حقوق مستعمراتهم ولم تبق مستعمرة منها لم تنتفع بالمبدأ فى تسويغ مطلب او تعزيز صفة من الصفات الدولية التى تحرص الامم عليها ، ولم يكن المبدأ وحده هو منصف الهند والباكستان وبلاد النيجر واوغنده وما اليها من الشعوب الافريقية ، ولكن لولا المبدأ لما تم فى الواقع أن ينال كل شعب من هذه الشعوب درجة فوق درجته بين البلاد المحكومة ، لان المبدأ ينطبق على جميع هذه البــلاد ولا يجمعها الواقع فى حالة متفقة وفى زمن واحد كائنـــا ما كان .

□

على أن الشعور الانسانى مقياس صحيح يعتمد عليه فى بيان الفارق بين دعوى الاستعمار بالامس ودعواه اليوم ،

ونحسب أن هذا المقياس أولى أن نعتمد عليه من مقياس مبادىء الرأى أو وقائع العيان

واليوم يعاب السياسي بأن يقال عنه انه من زمرة الاستعماريين أو المستعمرين ، ويعتبر نسبته اليهم وصمة يبرأ منها ويحاول أن يموهها بانتحال أسماء للاستعمار غير اسمه الصريح

ولا يستغرب الناس في عصرنا خجل الساسة من نسبتهم الى زمرة الاستعمار ، لانهم يقرنون هذه النسبة باثارة الحروب واغتصاب الحقوق والعدوان على الانفس والاموال والاستكبار على الناس في غير موجب للكبرياء . ولكننا نعود الى ابطال الفتح والتوسع أو الى ابطال الاستعمار والسياسة الامبراطورية في التاريخين القديم والحديث فلا يشق علينا أن نتخيل دهشتهم من هذا الخجل بما يشرفهم في أعينهم وأعين السادة والعبيد في أزمنتهم . ولا نظن أن اسكندر المقدونى ، بل نابليون وسسل رودس ـ يستطيعون أن يتخيلوا وجود ذلك الانسان الذى يخجل من فتح الممالك والسطوة على الملوك والشعوب ، وربما تخيلوه فتخيلوا أنه لا يكون الا واحدا من أولئك المتفلسفة المتحذلقة الذين يتفيهقون على الناس بغرائب الآراء ونوادر الاقاويل ، ولكننا لا نحسبهم يفهمون أن يكون الخجل من الاستعمار حديثا يتردد في الصحف ويدور على الافواه وينادى به في المحافل والاسواق . ومن أين يخطر هذا الخاطر للفتى الذى كان يتنهد أسفا لان أباه فتح ممالك العالم المعمور فلم يدع له مكانا يفتحه وأوشك أن يبتليه بالتفكير في فتح السماء

وجاء نابليون بعد الاسكندر باكثر من عشرين قرنا فلم يبد من فعله أو من قوله أنه كان يكره أن يكون نسخة فرنسية

من تلك النسخة المقدونية ، أو يأبى ان يفخر بشيء كان يفخر به صاحبه القديم

وجاء سسل رودس فى عصر بعد عصر نابليون فكان توسيع الامبراطورية أشرف عمل يعمله بل أشرف امنية يتمناها ، ولحق به اناس من بنى قومه الى أيام الحرب العالمية لايتورعون ان يحسوا كما احس أو يعملوا كما عمل او يقولوا كما قال

وانه لمن انكار الواقع — لامن انكار المبدأ فحسب — أن يغفل الباحث عن معنى هذا الشعور المختلف فى الدلالة على الفارق بين دعوى الاستعمار بالامس ودعواه اليوم ودعواه فى الغد القريب

□

و « التواضع الاستعمارى » آية أخرى من آيات الحكم على الاستعمار بمقياس الشعور

ففى العصور الغابرة كان الفاتح يصول على الامم ليستعلى بينها بشرف الفتح ويرفع قدره واقدار قومه مكانا عليا يعفو له أبناء الوطن المفتوح ولا يتطاولون الى مساواته فيه ، وماكان من شأن فاتح ان يفتح بلدا ليقول لابنائه اننى معكم على سواء وان حقى وحقكم شرع فى الدستور والقانون

فلما بطل فخر الاستعمار ظهر « التواضع الاستعمارى » قبل ان تظهر المبادىء العامة فى السياسة الدولية ، وما زال المستعمرون من أوائل القرن العشرين يتقربون الى رعاياهم بمساواتهم فى حقوق المواطنة ويعبرون عن هذه المساواة بما طاب لهم من الصيغ الدستورية أو صيغ العرف الشائع بين الديمقراطيين المحدثين

فالانجليزى سمح للهندى أن يساويه فى حق الترشيح للنيابة فى العاصمة الانجليزية

والفرنسى يقول ان الجزائر وطن للفرنسيين وان فرنسا وطن للجزائريين

والروسى يقول للترك الاسيويين ان صعاليك الامم قاطبة مشتركون فى حقوق الاوطان

والامريكى يقول لابناء الفيلبين قبل تعديل الدستور الاخير ان رعايا الولايات المتحدة ورعايا الجزر الوطنيين ســواء فى حقوق المواطنة

وهذه دول متفرقة تباشر دعاوى الاستعمار على اشكال والوان ، ولكنها تصطنع التواضع الاستعمارى لان « الفخــر الاستعمارى » قد أصبح فى خبر كان ، ولا يغير من هذه الحقيقة أن يكون المستعمرون مخلصين او مخادعين ، فانما الحقيقة من وراء الاخلاص والمخادعة أن الشعور بالفخر الاستعمارى غير مقبول فى العصر الحديث

أن تقسيم المستعمرات الى انواع كان نقطــة الانتقــال الاولى فى سبيل الاعتراف لكل نوع منها ببعض الحقوق

أما النقطة الاخرى ــ ولعلها الاخيرة ــ فهى اضطرار الدول الى النص فى ميثاقها على بطلان مبدأ الاستعمار واحترام مبدأ « تقرير المصير »

آداب الاستعمار

تعود الناس من الاستعمار قلة الصدق وكثرة الـكذب ، والفوا منه نقض المواثيق وخلف المواعيد ، وتسايرت الامثال بهذه الخلة فيه حتى شهد بها زبانية الاستعمار كما شهد بها ضحاياه ، ولكنهم يشهدون بها اضطراراً ليقولوا انها واسطة تبرر الغاية وانها حيلة معيبة فى سبيل مصلحة محمودة ،وربما غلا بعضهم فى دعواه فزعم أنها مصلحة للمغلوبين ومصـلحة للغالبين ، وانها فى امر المغلوبين كمصلحة الطفل القاصر الذى يساق الى نفعة ولا يقدر على ادراكه

والاستعمار على اتفاق الاقوال كذوب،الا أن الكذب خليقة نفسية يوصف بها الانسان ولا توصف بها الحركات الاجتماعية او حركات الامم والحكومات ، واصح من ذلك ان يقـال ان الاستعمار مستغل يقوم على الاثرة ، وأن آدابه كسياسته فى هذه الخلة ، فما تواضع عليه من آداب فهو آداب استغلال، وما تواضع عليه من سياسة فهو سياسة استغلال

□

انه يستغل الرذيلة كما يستغل الفضـيلة : يستغل الجبن والخسةوالحرص على المنفعة العاجلة كمايستغل المبادىءالكريمة والخلائق المحبـوبة ، فلو جمع ما قيـل فى الدعوة الى الحرية والسلام والرقى والحضارة لوقعت حصته الكبرى فى جعبـة المستعمرين ، وما انقضت فترة قط فى العصور الاخيرة على غير « رسالة انسانية » جميلة يترنم بهـا دعاة الاستعمار

من أصحاب السيف والنار الى اصحاب الاقلام والافكار

الا اننا نتبرع للاستعمار بالشرف الاكبر اذا قلنامعالقائلين انه يخلق ثلث الدعوات ويخترع رسالاتها اختراعا من عنده ليدرك بها مأربه ويخدم بها قضاياه

وفى بعض المفسرين الماديين للتاريخ ولع باسناد الرسالات الانسانية منذ القدم الى سماسرة الاستغلال من الساسة واصحاب الاموال ، فلا غيرة فى رأيهم على حرية الارقاء ولاعلى قضية السلام ولا على امثالها من القضايا لولا المآرب التى يعمل لها المستعمرون والمستغلون ويحاربون من أجلها من يحاربون ، أو يسالمون من يسالمون.

عدو جاهل ولامراء ، ولو قال هؤلاء الماديون ان آداب الاستعمار زائفة وأن نياته غير خالصة وأنه يستغل المبادىء بعد وجودها واصطلاح الناس على اكبارها وتأييد العاملين لها لصدقوا وبلغوا ما يريدون من كشف النيات والتحذير من الخدع والاضاليل ، ولكنهم يصيبون الانسانية بكذب اقتل لها من كذب الاستعمار فى أخبث دخائله حين يجحدون على الانسانية قدرتها على التقدم وينوطون فضائل التقدم كلها بأكاذيب المنافقين وأباطيل المكرة الخادعين

فالاستعمار أعجز من أن يسبق الانسانية قيد شعرة الى فضيلة لا تحسها ولا ترتفع بآدابها اليها ولا تكون فيها المنفعة للعديد الاكبر من أبنائها ، فتصلح من ثم للاحتيال بها على بلوغ المطامع وتدليس العقائد أو الدعوات . وقد حمل الاستعمارعلم الحرية والدفاع عن الرقيق وفعل ذلك لاستعباد الشعوب الحرة لا لاطلاق الارقاء المستعبدين ، وقد ارسل المستعمرون أساطيلهم ترود البحار وترصد السواحل وتعترض السفن

وتقتحم الموانىء وتستبيح المواقع فى الاقطار المستقلة بحثا فيما زعموا عن النخاسين والارقاء ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك الا بعد ان اصبح « الفتح » منكرا يحتاج الى المعاذير ، وبعد ان اصبح تحرير الرقيق مأثرة يدعيها المدعى ويرشو بها الضمائر فتقبل الرشوة خالصة النية أو متواطنة على الخداع ، اما قبل ذلك فقد كان هذا الاستعمار يرسل أساطيله علانيـة ليقـود حملات النخاسة وينقل الشحنة بعد الشحنة من الارقاء المغتصبين بغير ثمن أو المبيعين بأبخس الاثمان ، سلعا لا سعر لها فى سوق البغى غير سعر الصيد المباح

وما من داعية سياسى يحتاج فى ايامنا هذه الى الاطناب فى تبشيع النخاسة والاتجار ببيع الآدميين ، ولكن الدعاة الذين قامت شهرتهم على تحرير الرقيق كانوا الى ما قبل مائة سنة يبحثون عن سبب آخر غير سبب المروءة لاقناع اتباعهم بوجوب تحريم النخاسة ، لان الآداب الانسانية لم تكن قد ارتفعت الى المرتقى الذى يجعل تحريمها من البديهيات لغير سبب آخر سوى البشاعة البينة التى لا تحتمل الآن اطالة للجدال ، فكان ابراهام لنكلن داعية التحرير الاكبر يضيف سبب الغيرة على الوحدة الوطنية الى سبب الغيرة على الكرامة الانسانية كلما اراد ان يقنع نصيرا له يحرص على اقناعه ، وكتب قبل شهر من اعلان التحرير الى هوراس جريلى Greley « ان هدفى الاعظم فى هذا الكفاح ان انقذ الوحدة الوطنية لا ان انقذ الشرق ولا ان اقضى عليه . فاذا استطعت ان احافظ على الوحدة دون ان أحرر عبدا واحدا فعلت ، واذا استطعت ذلك بتحرير جميع العبيد فعلت ، واذا استطعته بتحرير فريق منهم وابقاء فريق منهم فى العبودية فعلت ... »

ودور الاستعمار فى قضية السموم والمخدرات كدوره فى قضية الرقيق : دور المستغل التابع لا دور المخترع المتبوع . فان الدول التى اقامت المؤتمرات فى جميع القارات لمصادرة السموم المخدرة ومطاردة العصابات القوية التى تخصصت لتهريبها لم تتورع فى القرن الماضى عن حماية هذه السموم واكراه الصينيين على استيرادها وتشجيعهم على تعاطيها ، وهل كانت حرب الافيون ـ أو حروب الافيون ـ التى اشتعلت فى القرن التاسع عشر مما تجترىء عليه دولة من الدول لو قامت مشكلتها فى هذه الايام ؟ ان سياسة الدول لم تختلف من قبل ومن بعد لانها تزهد اليوم فى كسب كانت ترغب فيه بالامس ، ولكنها اختلفت لان العقبات الاخلاقية التى تصد عن تجارة السموم كانت مذللة للاستعمار ممهدة تحت قدميه فأصبحت فى العهد الاخير مخيفة له أو عسيرة عليه

□

وقضية السلام من القضايا العالمية التى نرى فيها نوعا من الاستغلال لكل نوع من الاستعمار ، ولا نرى لها صورة من الصور يكون فيها دور الاستعمار دور اختراع وابتكار

فالمستعمرون الذين شبعوا من الاستعمار ينصرون السلام لان الحرب اما ان تكون ثورة عليهم من المغلوبين المطالبين بحقوقهم ، أو منازعة لهم من الاقوياء الطامعين فى تراثهم ، وفى كلتا الحالتين يغنمون من السلم مالا يغنمونه من القتال

والمستعمرون الذين تأخرت بهم القافلة ـ كالنازيين والفاشيين ـ يستغلون قضية السلام على منهجين متعارضين . فهم فى سياستهم الداخلية يشعرون بأن دعوة السلام فى العصر



ابراهام لنكلن

الحديث قوة لا يستهان بها فيحاربونها من أجل هذا ويمثلونها لرعاياهم على غير حقيقتها ، لانهم يحتاجون الى فلسفة الحرب فى تربية الصغار وتلقين جماهير الدهماء ولا ينتفعون بفلسفة السلام فى هذا المجال ، ولكنهم فى سياستهم الخارجيةيشعرون بقوة الدعوة الى السلم فى العصر الحديث فينهجون فىاستغلالها منهجا غير منهجهم فى السياسة الداخلية ويحاولون جهدهم ان يتهموا اعداءهم باحراجهم واضطرارهم الى مجاراتهم فى عدد القتال وخطط المقاومة ، ومنها تدريب الناشئة على الحرب وتلقين الجماهير صيحات النخوة والحمية ، ولو لم تسبقهم قضية السلام على الرغم منهم لما كانت لهم مصلحة فى اختراعها فى كلتا السياستين

وامانة « الرجل الابيض » ـ وهى قضية الاستعمار الاولى ـ احق القضايا أن يخترعها المستعمرون لو كانوا يملكون الاختراع فى دعوة من أمثال هذه الدعوات ، ولكن الرجل الابيض قد عاش زمانا فى القارة الاوربية ضحية للاستعمار من الرجل الابيض الذى يجاوره أو ينتمى الى عنصره وقبيله ، وما التفتوا الى طلب السيادة على السمر والصفر والسود ولهم بقية من الامل فى السيادة على البيض من صميم الاوربيين !

□

فالاستعمار لا يخلق للأمم آدابا تروج بينها ونتلقاها منه خدمة لمصلحة أو ايمانا بعقيدة ، وانما تنشأ الآداب الانسانية وتبلغ مبلغ القوة والرهبة قبل أن تصبح صالحة للاستغلال والادعاء فى سياسة المستعمرين ... وهذه الحقيقة جديرة

ابدا ان تتقرر فى اذهان الامم المبتلاة بمطامع الاقوياء . لانها هى الخاسرة اذا لم تفرق بين دعوات المستعمرين ونيـات المستعمرين . فلا مصلحة للعالم فى احباط الدعوات الانسانية التى ينتحلها المستعمرون ، وانما مصلحة العالم أن يتكشف النفاق عما وراءه ، وأن تبقى دعوات بنى الانسان لبنى الانسان وراء كل نفاق واستغلال



نهاية الاستعمار

أخذ الاستعمار فى الزوال لانه مرحلة من مراحل التاريخ التى لاتوجد للدوام ولا بد أن تنتهى بانتهاء دورها عند زوال أسبابها ووصولها الى غاية مداها . ومن أسباب زوال هذه الادوار انها تجربة من تجارب الامم فى عالم المجهول ، وانهـا تنطوى على كثير من الاغلاط والمساوىء كما تنطوى على كثير من الخطأ فى التقدير ومن سوء الحساب عند القائمين بهـا والعاملين عليها

الا ان هذه المرحلة ـ مرحلة الاستعمار ـ كانت بدعة بين المراحل التاريخية بكثرة ما فيها من مزالق الاقتحام ومفاجآت المجهول ، وكانت أشواطها كلها كأنها خطوات معتسفة يبتدىء بها السالك طريقه ويتوسطه قبل ان يعلم انه قد ضل الطريق . ثم يقف بين الحيرة والعناد ، ويصر على العناد لانه لا يستطيع الرجوع ولا يستطيع التسليم بالضلال

وقد قيل ، بحق ، ان مرحلة الاستعمار الحديث قد بدات فى وقت واحد مع عصر الاستكشاف او عصر البحث عن الطريق المجهول

وكانت فى الواقع بحوثا كثيرة وطرقا متعددة . فمن ذاهب الى الغرب ليصل الى الشرق من طريق مجهول حول الكرة الارضية ، ومن ذاهب الى الجنوب ليصل الى الشرق من طريق الطواف حول القارة الافريقية ، ومن ذاهب الى الشمال ليصل الى الشرق من ناحية القطب خلال الاقطار الروسية ، ومن

ذاهب الى البحر الاحمر يريد أن يصل بينه وبين بحر الروم بسكة من سكك البر او مجرى من مجارى الماء

كانت بحوثا كثيرة عن طرق كثيرة

وكذلك كانت بحوث الاستعمار التى افتتحت مع بحوث الاستكشاف فى عصر واحد : كلها كانت من المغامرات وكلها كانت من المقامرة على المجهول ، ولهذا كان خطأ الحساب وسوء التقدير اكبر اسباب الخيبة التى اصابت الاستعمار فى منتصف الطريق أو قبل منتصف الطريق ، وتقترن بهذه الاسباب الكثيرة اسباب اخرى من اخطاء المستعمرين ومن نقائض الاستعمار نفسه فى صميم تكوينه ، وهى ليست بالشيء القليل

مصادفة الموقع الجغرافى

فمن الاسباب العرضية التى دفعت ببعض الامم الى ميدان الاستعمار — ان هذه الامم كانت فى موقع جغرافى يسوقها الى الميدان وما استعدت له غير هذا الاستعداد — العرفى — الذى جاء من طريق المصادفة

لماذا تكون البرتغال وهولندة وبلجيكا بين دول الاستعمار التى ملكت من المستعمرات مالم تملكه كثير من الدول الكبار ؟

لا سبب لذلك غير أنها كانت تقيم على شواطىء البحر الاطلسى وكان البحر الاطلسى هو طريق الماء الوحيد المفتوح للبحث والتجربة بعد امتناع التجارة فى بحر الروم أو البحر الابيض المتوسط

وهذا سبب كاف لابتداء التجربة والمحاولة ولكنه غير كاف

للاستمرار والبقاء فى الميدان ، وبخاصة بعد انكشاف المجهول وتطور الاغراض التى من اجلها بحث الباحثون عن الطـرق وابتدأوا خطواتهم الاولى فى تجارب الاستعمار

ولنضرب المثل ببعض هذه « التطورات » فى أمة واحـدة لعلها هى اسبق الامم الى هذا الميـــدان ــ ونعنى بها امة البرتغال

فهذه الامة قليلة العدد قليلة الموارد الصناعية قليلة العلاقة بالامم الاخرى فى القارة الاوربية ، وكان همها الاكبر أن تعثر على الطريق الذى ترسو عليه السفن وأن تتغلب على السفن المنافسة لها فى البحار المقصودة

ومن المصادفات أن الدول التى كانت تزاحمها كانت يومئذ فى شاغل عن مزاحمتها ، لان الدولة الاسبانية كانت تســيطر على شواطىء هولنده وبلجيكا وكان الكشافون الاسبان متجهين الى البحث عن طريق الهنــد فى البحــار الغربيــة على آثار « كولمبس » المشهور

اما السفن التى كانت تزاحم سفن البرتغال فى البحــار الشرقية فلم تكن مستعدة بالاسلحة الحديثة التى استعدت بها سفن البرتغال ، ولم تكن فى تركيبها صالحة لجميع اغراض الملاحة أو اغراض الحروب البحرية ، فلم تقدر على مقــاومة السفن البرتغالية فى هذه المنافسة الهوجاء

وما كادت هذه الدولة السابقة الى الميدان أن تظفر بالغلب على طريق الملاحة حتى تبين لها ان نقل التجارة وحده لايكفى لاجتناء الغنائم المنتظرة من هذا الطريق . فانها لم تكن دولة صناعية ولم تستطع أن تنافس الدول التى توافرت لديهــا ادوات الصناعة الكبرى ، وقد اخذت هذه الصناعة الكبرى

يومئذ فى الظهور وأوشكت دول الصناعة ان تستولى على الاسواق كما استولت على المعامل والصناعات

نقص الموارد المنتظرة

والدول الصناعية الكبرى ما شأنها فى هذا الصراع الذى انهزمت فيه البرتغال ؟ هل سلمت من أخطاء التقدير ومن سوء الحساب ومن اختلاف الاغراض بين خطوات الاستعمار فى بداءتها وخطواته بعد التقدم الى منتصف الطريق ؟

كلا !

ان المشكلة جاءت هنا من اجتماع الصناعة والتجارة فى يد واحدة . فلابد للدولة المستعمرة من موارد تحتكرها للحصول على الخامات ، ولا بد لها من أسواق تحتكرها لتصريف مصنوعاتها بغير مزاحمة ، ولابد لها مع هذا وذاك من حراسة الطريق ومن حراسة الموارد المحتكرة لجلب الخامات والموارد المحتكرة لتصريف المصنوعات

□

والبرتغال انما هى مثل واحد استحقت التقديم لانها كانت فى طليعة السباق العالمى الى الاستعمار ، ولكنها لم تنفرد بالمفاجأة بين الدول الكثيرة التى خرجت معها أو لحقت بها فى هذا السباق . اذ كانت هذه الدول جميعا قد فوجئت بعد حين بما أخلف حسابها فى أمر من الامور ، ولم تمض عليهن أعوام معدودات حتى علمن أن الغرض الاول الذى خرجن للبحث عنه لا يغنى زمنا طويلا فى هذه المهمة ولا يكفل لهن الثبات والنجاح بعد انكشاف الطرق المجهولة التى خطر لهن

فى بادىء الامر أن العثور عليها هو القبلة المقصـودة وخاتمة المطاف

كان الغرض الاكبر من حملات الاستكشاف أن تنتهى الى طـريق الهنـد من الغـرب أو من حول القـارة الافريقيـة ، وكان الرجاء المأمول ـ أو الرجاء الصالح ـ كما وصفوه يومئذ ان يعثر الرحالون على الموانىء التى ترسو عليها السفن فى أمان لتفرغ وسقها وتعود بوسق جديد من خيرات الشرق وذخائره بعد امتناعها من طريق البحر الابيض المتوسط وما اليه

فلما تحقق هذا الغرض ووجدت الموانىء الصالحة للتبادل المنشود ظهر أولا ان بضائع أوربة غير مرغوب فيها بين الشرقيين، ثم ظهر أن التنافس بين الرحالين المستكشفين يوشك ان يصعد بأثمان السلع الشرقية صعودا لا يقل عن صعودها من جراء الحجر عليها فى طريق البحر الابيض المتوسط وما اليه ، وظهر بعد ذلك أن النزول فى الموانىء لا يكفى لتحقيق البيع او تحقيق الشراء ، بل لابد معه من سيطرة على داخل البلاد لضمان الاحتكار وصد المزاحمين وقمع المقاومة من جانب الشرقيين أبناء البلاد ومن جانب الغربيين المنافسين فى التجارة والاستكشاف

ولما تقدمت معامل الصناعة الكبرى فى القارة الاوربية ظهرت مشكلة جديدة لم تكن فى الحسبان ، وهى مشكلة الحصول على الخامات وتصريف البضائع المصنوعة فى أسواق محمية من مساومة المنافسين ومناظرة المخترعين والمبتدعين ، وتفاقمت هذه المشكلة بعد أن أصبحت للغرب مصنوعات يرغب فيهـا الشرقيون ، وقد كانت المصنوعات الاوربية مزهودا فيها بينهم

قبل تقدم المعامل والآلات الصناعية الحديثة ، لان مصنوعات الايدي فى الشرق كانت أدق وامتن من مثيلاتها عندالاوربيين، وكانت مع دقتها ومتانتها اجمل منظرا ومخبرا على الاقل فى أذواق الشرقيين كما تعودوها على اشكالها المأنوسة منذ مئات السنين

واختل الحساب فى كل مستعمرة من المستعمرات بلااستثناء من هذه الناحية : وهى ناحية الجمع بين طلب الخامات وتصريف البضائع المصنوعة ، فلم يتفق قط أن يتم الجمع بينهما فى مستعمرة واحدة تؤخذ منها الخامات وتباع فيها المصنوعات، وكثيرا ما وجدت الخامات فى بلادلاتنتفع بها صناعةمستعمريها، وكثيرا ما وجدت المصنوعات حيث لا توجد الاسواق ، وكثيرا ما اصطدمت المطامع والسياسات من اجل ذلك حتي وقعت الحرب غير مرة بين الدول المستعمرة وتبين منها ـ حتى فى ذلك العهد ـ ان خسارة الاستعمار أكبر من جدواه ، وانه لابد من الاتفاق على تقسيم الغنائم على وجه من الوجوه ، والا فلا غنيمة لاحد من المتنازعين على جميع الوجوه

وفى هذا الشوط ضمنت الدول الصغيرة أن تستبقى ماملكته على ضعفها منعا للنزاع عليه بين الدول القوية الطامعة فيه ، وتراضوا جميعا ـ جهد ما استطاعوا ـ على ترك كل نصيب لصاحبه واجتناب المنازعات الدولية فى هذا الميدان ، اكتفاء بالمنافسات التجارية أو بمناورات السياسة التىلاتنتهى الى الصدام او تجريد السلاح

الاحتكار

وتيسر الاحتكار بموافقة الجميع بعد ان كان احتكارا

مغتصبا أو مختلسا فى غفلة الآخرين ، فمن استولى على جهة من الجهات فهى له بأسواقها وأسعارها وخاماتها وبضائعها يرفع منها ما يرفع ويضع منها ما يضع كما يشاء ، وقد كان الاحتكار منذ البداءة ضرورة لا محيد عنها لكل من المستعمرين فيما استولى عليه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه جرثومة الداء التى كمنت فى احشاء الاستعمار حتى قضت عليه بعد قرن واحد ، وانتهت به الى الباب المفتوح فى أواخر القرن التاسع عشر ، ذلك الباب الذى أريد به أن يفتح ليدخله المستعمرون جميعا فاذا به الباب الذى يخرجون منه تباعا ، ولا يزالون يخرجون !

□

لقد كانت حركة الكشف عن طريق التجارة المجهول أشبه شىء — كلها — بمحاولة التاجر إن يكشف عن سر الصناعة المجهول ليحتكرها ويذود المنافسين عليها . فكانت كل سفينة تصل الى بقعة من الارض تبادر الى رفع العلم عليها وتسجيلها باسم الدولة وباسم الكنيسة كأنها حوزة مغلقة فى وجوه الطارئين عليها من أصحاب الرحلات المتتابعة ، واستطاعت البرتغال واسبانيا أن تتفقا من مبدأ الامر على الاحتكار لانهما سلكتا فى الاستكشاف طريقين لا تنازع بينهما ، فاتجهت كشوف البرتغال الى الطواف حول افريقية واتجهت كشوف اسبانيا الى الطواف حول الكرة الارضية ، وكانت كلتا الدولتين من اتباع الكنيسة البابوية فحرصت الكنيسة على التوفيق بينها وسد ذرائع النزاع التى اوشكت ان تشجر بينهما على أثر الرحلات الكشفية فى مجاهل الارض والماء ، وبلغت قسوة

الاحتكار أشدها فى الجهات المتفق على تركها لدولة من الدولتين ؛ فصدر أمر الملك حنا الثانى البرتغالى فى منتصف القرن الخامس عشر باغراق كل سفينة يلقاها عمال الدولة على سواحل غانة أو الاستيلاء عليها بغير سؤال ، ومتى استولت الدولة على سفينة غريبة وجب القاء من فيها من الربابنة والنواتية فريسة للقروش وحوش البحر المشهورة فى تلك المياه ، ولما اشتركت فى ميدان الاستعمار دول الغرب التى لا تدين بالطاعة للكنيسة البابوية ـ كانجلترا وهولنده ـ سلكت فى الاحتكار مسلكها الذى يوافق نظام الحكم فيها ؛ فأصدرت انجلترا عدة قوانين لتنظيم المعاملات الاستعمارية أشهرها القوانين الثلاثة التى اشتهرت باسم قانون الملاحة (سنة ١٦٦٠) واسم قانون التصدير (سنة ١٦٦٦) واسم قانون رسوم الزراعة (سنة ١٦٧٣) وحرمت بقانون الملاحة حمل البضائع التى تدخل بلادها او تخرج منها على غير السفن الانجليزية ، وفرضت على كل سفينة أن تودع فى خزانة الدولة ضمانا ماليا تستصفيه الدولة فى حالة المخالفة ،واوجبت بقانون التصدير أن تكون البضائع المرسلة الى المستعمرات مشحونة من أحد الموانىء الانجليزية ، وفرضت بقانون الرسوم الزراعية ضريبة مقررة على جميع الغلال والمحاصيل التى تنقل من مستعمرة الى اخرى ، وأمرت لاجل ذلك باحصاء جميع المزارع التى تنتج تلك الغلات والمحاصيل وحصر منتجاتها ومقادير الصادرات والبقايا المتخلفة منها . وقد كانت هذه القيود تسخط اناسا كثيرين من رعايا الدولة الانجليزية كما تسخط الغرباء الذين يعاملونها من أبناء الدول الاجنبية ، لان اصحاب السفن ايقنوا من اضطرار التجار

والزراع الى حمل البضائع على سفنهم دون غيرها فرفعوا الاسعار وغالوا بتقدير الاجور ، ولان احصاء المزارع قيد الزراع وحال بينهم وبين حرية الاختيار فى تقدير الاصناف والمساحات على حسب الظروف العاجلة ، واضاع فرص الربح فى غير الاسواق الانجليزية

وسلك الهولنديون مسلك الانجليز فى احتكار التجارة والزراعة لانفسهم فى مستعمراتهم ، فما استطاعوا منعه بالقوانين منعوه وشددوا فى تحقيق منعه ، وما بقى بعد ذلك من منفس للتجارة الحرة ضيقوه بالاجراءات الادارية والمحاكمات القضائية التى تنتهى بادانة المتهمين في جميع الاحوال ، ومنها محاكمات اتهم فيها رعايا الدول الاجنبية بالتواطؤ مع ابناء البلاد الوطنيين على قلب نظام الحكومة وصدر فيها الحكم بالموت على المتهمين المعترفين بجريمتهم كما جاء فى الاحكام الصادرة عليهم

وتشبث المستعمرون بخطة الاحتكار فى كل بقعة من الارض وضعوا أيديهم عليها ولو لم يقدروا على الحاقها بدولتهم فى صورة من صور الاستعمار المصطلح عليها ، واسلوبهم فى حكم السودان مثل من أمثلة الاحتيال على فرض الاحتكار على شكل من الاشكال حيثما تمكنوا من فرضه وملكوا السلطة القادرة على تحقيقه : فالانجليز قد دخلوا السودان باسم الحكومة المصرية وأعلنوا ذلك فرارا من مساومة الدول لاحفاظا على الحقوق المصرية . اذ كان فتح السودان باسمهم غنيمة تفتح ابواب المساومة على تبادل الغنائم وتتيح للدول المناقشة لهم ان تطالبهم بغنيمة مساوية لهذه الغنيمة فى عرف « المقايضات » السياسية ، ولكنهم لما فتحوا السودان باسم

مصر تعرضوا لمحظور آخر وهو محظور الامتيازات الاجنبية التى كانت عامة مرعية فى جميع البلاد التى كانت تدين يومئذ للسيادة العثمانية ، ومتى قبلوا تطبيق الامتيازات الاجنبية فى السودان غلت هذه الامتيازات أيديهم عن الاحتكار وجاز للأجانب جميعا كل ما يجوز للانجليز بحكم المعاهدات الدولية. فخرجوا من هذا المحظور بحيلة الاحكام العرفية التى ظلت مضروبة على السودان الى آخر يوم من أيام الانجليز فيــه ، وتأتى لهم بحجة هذه الاحكام العرفية أن يبطلوا ماشاءوا من النظم ويقرروا ما شاءوا من الاجراءات الموقوتة او الدائمــة لانهم فى حالة استثناء يباح فيها مالا يباح فى جميع الاحوال

وعلى الجملة يقــال ان الاحتكار والاســتعمار صـــنوان لا يفترقان . وينبغى أن نؤكد هذه الحقيقة كل التوكيد فى هذا المقام ، لانها تكشف القناع « اولا » عن حقيقة الدعوى التى روجها المستعمرون باسم امانة الرجل الابيض فى البـــلاد الشرقية ، فانهم ذهبوا الى البلاد الشرقية متنازعين متقاطعين لا يطيق الرجل الابيض منهم ظل الرجل الابيض فى جـواره ما لم يكن شريكا له فى حصة من حصص الاحتكار

وينبغى توكيد هذه الحقيقة « ثانيا » لانها هى الحقيقة التى تفسر لنا نهاية الاستعمار فى أوائل القرن العشرين . فــكلما انقضى الاحتكار فى مكان انقضى فيه الاستعمار على اثره ، ويجوز لنــا أن نقول أن قوة الاستعمار تقاس بقوة الاحتكار ، وانه كلما لانت قبضة الاحتكار فى بقعة من بقاع الارض لانت قبضة الاستعمار بمقدار ذلك ، فلا استعمار حيث تتساوى الفرص ويتساوى النفوذ وتتساوى الحكومة المستعمرة وغيرها من الحكومات الاجنبية فى علاقاتها بوطن من الاوطان

وعلى غير اختيار من الدول قبلت سياسة الباب المفتوح بعد التفاهم على الاحتكار الصارم كل منها فيما ملكته من الارض أو ساومت عليه لاعتباره من مناطق نفوذها على سنة المبادلة والتقسيم ، وانما قبلت سياسة الباب المفتوح بعد التشدد فى الاحتكار لان هذه السياسة كانت بديلا من الازمات والقلاقل والحروب التى تتوالى نذرها وتعطل التجارة والصناعة جميعا ولا تنحصر أضرارها فى نقص الثمرات والارباح ،وظهرت فى « المحيط الدولى » أمم كثيرة لم يكن لها حساب فى ايام الكشف والاستطلاع والبحث عن طرق التجارة والاسواق ، فظهرت روسيا والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة الى جانب انجلترا وفرنسا وهولنده وبلجيكا من كبار الدول وصغارها التى ورثت تركة الاستعمار وصمدت آخر الامر فى المضمار ، وليست هذه الدول الحديثة من هوان الشأن بالمكان الذى يتجاهله المستعمرون أو يحمدون العاقبة اذا تجاهلوه

وقد شعر المستعمرون بضرورة التفاهم على نظام من قبيل نظام الباب المفتوح قبل تطبيق هذا النظام على نطاق واسع فى السياسة العالمية ، فاتفقت فرنسا وانجلترا سنة ١٨٩٨ على نظام سموه بنظام « عدم التمييز » Non-discrimination فى نيجيريا وداهومى وساحل الذهب وساحل العاج ، وأعلنت بلجيكا نظام الفرص المتساوية فى مستعمرة الكونغو لتجمع من المكوس الجمركية بعض نفقات الولاية ، ولتدفع حملات التشهير بمظالم الاستعمار البلجيكى فى المستعمرات الافريقية ، وانعقد مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ لتقرير نظام الباب المفتوح فى المغرب

الاقصى مع التفاهم على تقسيم مناطق النفوذ بين الفرنسيين والاسبان ، وتعددت فى الشرق الاقصى معاهدات الدول التى سميت بالمعاهدات الدولية او المعاهدات القائمة على نظـــام الباب المفتوح ، واشتركت فيها انجلترا وفرنسا والمانياوروسيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الكبيرة أو الصغيرة،واصبح من النصوص المألوفة فى كل معاهدة تعقد مع الصين ان كل امتياز تمنحه الصين احدى الدول ــ فيما بعـــد ــ يعتبر امتيازا عاما لجميع الدول بغير حاجة الى تعميم النص باتفاق جديد . ثم جاء ميثاق عصبة الامم بعد الحرب العالمية الاولى فجعل نظام الباب المفتوح ركنا من أركان السياسة العالميـة ومبدأ من المبادىء المقررة لحفظ السلام واتقاء الحروب،وقررت المادة الثانية والعشرون من الميثاق أن مسألة الوصاية على المستعمرات المحكومة مسألة دولية تنظر فيها عصبة الامم ويرجع الامر فيها الى لجنة دائمة من لجان العصبة تشرف على أعمال الدول ذوات الوصاية او الانتداب ، وتقرر بموجب الميثاق ــ ان حرية الشعوب من جميع الاجناس اصل من أصول الحقوق الانسانية مرهون بموعده القريب ، وأن تقرير الاستقلال على درجات لا يبطل حق الاستقلال ولا يسـقط دعواه ، بل هو اعتراف به لا اختلاف فيه الا أن يكون من قبيل الاختلاف على سن الوصاية فى معاملة بعض القاصرين

وليس عمل المؤرخ هنا أن يبحث عن نصيب هذه المبادىء من اخلاص الدول التى تعلنها او سوء نيتها فى اعلانها منـذ اللحظة الاولى . فانَّ تقرير المبدأ فى المعاملات الفردية أو المعاملات الدولية خطوة لا يستهان بها من الوجهة العمليـة الواقعية فضلا عن الوجهة النظرية أو الادبية ، وقد يكون

الناس جميعا على دخلة سيئة فى أمر المبادىء الاخلاقية التى يعلنونها ويسرون غيرها بل ينقضونها بما يعملونه ويحتالون لاخفائه أو يجهرون به غير مكترثين ولا متحرجين ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقول ان تقرير مبادىء التحريم فى الجرائم والمنكرات سواء والسكوت عنها او الجهر بإباحتها واعفاء من يقترفها من العقوبة ، ومبدأ « الباب المفتوح » واحد من هذه المبادىء الهامة التى يقترن بها ولا شك تاريخ نهاية الاستعمار، ومسارعة الامم الى تقريره وتوكيده بعد الحرب العالمية الاولى يدل على حقائق كثيرة لامحل فيها للمغالطة ولا للنفاق ولا لحسن النية أو سوئها فى التنفيذ ، لإن العبرة بما تدل عليه من الوقائع المتمثلة فى شعور بنى الانسان ومن أجلها تقرر مبدأ الباب المفتوح فى الميثاق

والوقائع التى يدل عليها اثبات المبدأ فى ميثاق عصبة الامم أن العالم خرج من الحرب بأثر متفق عليه عن خطر الاحتكار على السلام ، وان الامم لا امان لها من حروب أخرى اذا بقى الاحتكار على علاته غير مستنكر وغير محدود ، ولا يكون هذا الشعور العالمى الا دليلا على مرحلة جديدة فى تاريخ الاستعمار يتبعها لا محالة عمل جديد ظاهر الاثر فى خطط الحاكمين وحقوق المحكومين

ضرائب الهجرة وضرباتها

ومما قيل عن الباب المفتوح انه سهم اصاب الاستعمار من يده . لان المستعمرين اضطروا الى فتح الباب اجابة لمطالب المستعمرين . ولكن الاستعمار قد أصيب من يده بأكثر من سهم واحد ، ومن هذه السهام ماهو إقرب مرمى وأشد

اصماء من مصـــاب الاستعمار بسهم التنافس بين شركائه المتفرقين من شتى الدول والحكومات ، اذ كانت بعض هذه الدول تصاب بأيدى أبنائها وروادها المهاجرين الى الاطراف النائية بحثا عن الذهب أو بحثا عن الارض الصالحة للمقام ، ولم يسجل تاريخ الاستعمار فى خطواته الاولى ضربة اصابته فى صـــميمه كالضربة التى جاءته من المستعمرات البريطانيـــة والاسبانية فى بلاد العالم الجديد ، فان الثورة التى قضت على الاستعمار البريطانى فى أمريكا الشمالية انما كان قوامها أناسا من الانجليز يعاونهم مواطنون لهم من الهولنديين والجـــرمان وسائر المهاجرين الى الشمال من الاوربيين ، وكذلك كانت ثورات الجنوب التى انتهت باستقلال الحكومات المختلفة فى القارة الجنوبية عن اسبانيا صاحبة السيادة عليها ، فقد كان قوامها من المهاجرين الاسبان والبرتغاليين وابنائهم المولدين ، ولو كان الاستعمار نظاما قابلا للدوام لـــا قضى عليه أبناؤه بأيديهم قبل انقضاء جيلين من تاريخ الهجـرة الى البـــلاد المستعمرة ، وهكذا يأبى الاستعمار المشاركة فى المنفعـــة ولو كان المشتركون فيها من جنس واحد او من أمة واحدة . فلما اختلف المستعمرون المقيمون فى اوطانهم والمستعمرون المهاجرون الى الاقطار النائية وجب ان يذهب احد الفريقين فذهب البعيد من الغنيمة وبقى القريب منها ، وثبت مرة اخرى ان الاحتكار قوام الاستعمار ، يعيش الاستعمار ماعاش الاحتكار ويموت بموته فى كل جوار

واقرب من هذا المرمى الى مقتل الاستعمار سهمه النافذ الذى أصيب به فى منبته وبين ذويه واوليائه . فالمهاجرون الى القارتين الامريكتين قوم منفصلون عن مقامهم الاول منقطعون

عنه فى مقام بعيد جعلوه لهم وطنا جديدا بديلا من الوطن العتيق ، ولكن المستعمرين ـ بعد قرن واحد من الزمان ـ منوا بالمعارضين لهم بين ظهرانيهم مقيمين معهم فى عقر دارهم مشاركين لهم فى ولاية الحكم او فى الخضوع له حينا بعد حين ، ونعنى بهؤلاء جميع الطوائف التى كانت محرومة من الحقوق النيابية ثم حصلت عليها شيئا فشيئا من أواسط القرن الثانى عشر الى اواسط القرن العشرين

كانت أزمة الحكومات فى عصر الرحلات الكشفية محصورة بين ايدى المحتكرين للبقاع والضياع ومعهم بعض المحتكرين للغلات والثمرات التى تأتي من تلك البقاع أو من تلك الضياع. ثم نشأت حركة التجارة العالمية ونشأت على آثارها حركة الصناعة الكبرى فاتسعت دائرة الحكومة ودخل فى زمرة الحاكمين أناس لم يحسبوا قط من قبل الا فى عداد المحكومين الخاضعين لولاة الامر بغير مشورة وبغير صوت مسموع فى حالتى الرضى والسخط أو حالتى الموافقة والاعتراض . فلما تكاثر مع الزمن عدد المشتركين فى الحكم أصيب الاستعمار من مقتله القديم ، او اصيب ـ بعبارة اخرى ـ من جانب الاحتكار كما يصاب فى كل حين

ذلك أن الصناعة الكبرى قد نشأت وانشأت معها اصحاب المعامل وعمالها المسخرين فى خدمتها ، وكان اصحاب المعامل وعمالها سواء فى مبدأ الامر فى طلب حصتهم من السلطة الحكومية ، ثم افترق هؤلاء وهؤلاء فأصبحت كل زيادة فى حصة العمال نقصا فى حصة أصحاب المعامل والاعمال ، وانتشر الامر على الاحتكار لازدياد حصص المطالبين بالمشاركة فيه ، ولكنه بقى زمنا فى بلاده وهو قادر على ارضاء هؤلاء

المطالبين ، كما بقى هؤلاء المطالبون زمنا وهم راضون باليسير او قانعون بما اصابوه كارهون

كان « انجلز » يقول ان العمال فى انجلترا عمال بالنسبة الى أصحاب الاموال فى بلادهم ولكنهم « برجوازيون » بالنسبة الى شعوب المستعمرات التى تملكها الدولة البريطانية ، لانهم يظفرون بالاجور العالية على حساب الايدى العاملة بالاجور القليلة من أبناء الشعوب المحكومة

وربما صح كلام « انجلز » فى جملته اذا نظرنا الى السياسة الاستعمارية التى صمد عليها العمال الانجليز بعد حصولهم على حقوق الانتخاب ووصولهم الى دسوت الوزارة ، ولكن الواقع ان اشتراك الكثيرين فى حقوق الانتخاب قد أصاب الاستعمار بالجرح القاتل الذى استطاع اخفاءه والصبر عليه فى أيام السلم الى مابعد الحرب العالمية الاولى ، ولكن الجريح الذى يحارب غير الجريح الذى يطوى جرحه فى سلام . فلم يحتمل هذا الاستعمار الجريح وطأة المجهود العنيف فى الحرب العالمية الاولى الا بشق النفس والمجازفة بالبقية الباقية من الرمق الضئيل ، فلما أعقبتها الحرب العالمية التالية بلغ الجهد مبلغه الذى لا تجدى فيه المغالطة والتسويف ، وانكشفت عقابيل الحرب عن استعمار جريح منزوف الجراح

وقد حافظ المحتكرون على غنائم الاستعمار يوم كانوا يحتكرونها وينفردون بجميع مواردها ، ثم حافظوا عليها يوم بقيت منها بقية مرموقة تساوى عناء المدافعة عنها ، ثم حافظوا على الاستعمار بعد نفاذ غنائمه حقبة من الزمن لان شهوة الاستعمار فى اواخر عهده قد استحالت من الوجاهة النافعة الى الوجاهة الفخرية ذهابا مع التقاليد المأثورة والسمعة

الموروثة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على استعمارهم بعد أن لصقت به شبهة الحروب ووصمة النفاق ، وزالت منه حتى الوجاهة الفخرية بلا طائل ولا عوض ولا امان

اسباب دينية

وهناك أسباب يصح أن تسمى بالاسباب الدينية لاتهمل فى صدد الكلام على العقبات التى واجهت الاستعمار فى خطواته الاولى وكان لها بعض الاثر فى تعويق سيره أو اضعاف قبضته على ضحاياه ، وتتلخص هذه الاسباب الدينية فى ارتباط سياسة أوربة الغربية بسياسة الكنيسة فى عصر من أحرج عصورها واشدها اشتباكا بأزمات الخصومة والمقاومة ومحاولة الثبات فى وجه التيارات العصرية التى كانت تجرى فى غير مجراها ، ويكفى للابانة عن قوة هذه الاسباب أن نذكر أن ذلك العصر كان عصر محكمة التفتيش وعصر الانشقاق بين الهيئات الدينية والهيئات السياسية ، وكان فوق ذاك عصر النهضة الذى تضاربت فيه تيارات الفكر والمصالح الاجتماعية فى كل اتجاه

وقد كانت أسبانيا والبرتغال من الدول التى ارتبطت سياستها بالكنيسة كل الارتباط ، وتليهما فرنسا فى أحوال كثيرة غير الاحوال التى يتغلب فيها دعاة الثورة والانفصال ، وكانت الصبغة الدينية غالبة على سياسة الحكومات فى أوربة الغربية وفى شبه جزيرة الاندلس على الخصوص لاشتباكها زمنا طويلا بالحروب المتوالية بينهما وبين مسلمى الاندلس والمغرب الاقصى ، واستمرار هذا الاشتباك بعد رحلات الكشف حول القارة الافريقية حيث كان الرحالون

والكشافون يصطدمون بالعرب خول القارة شرقا وغربا الى سواحل الهند الشرقية . وقد تقدم أن أميرا هنديا سأله « فاسكو دي‌جاما » عما كان ينشده برحلته الى الشرق فقال : «أبازير ومسيحيين» وتقدم أن الرحالين كانوا يسجلون حقوق الكشف فى سجلات الكنيسة لتخويلهم حق الفتح وحق الدعوة باسمها الى الدين . وحدث فى الاقطار الامريكية التى ارتادها الفرنسيون أن القساوسة كانوا يحرمون على مخالفى الكنيسة دخول تلك الاقطار ويخرجونهم منهبا اذا دخلوها بغير اذن من المراجع الدينية ، ويرى بعض المؤرخين أن فشل الاستعمار الفرنسى فى العالم الجديد يعود الى هذا الحظر الذى ابعد من ميدان التعمير والتوطين نخبة من ذوى الآراء المستقلة والامزجة القوية التى تشتد بين أصحابها نزعة التطلع الى التجديد

ومهما يكن من صواب هؤلاء المؤرخين فالامر المتفق عليه بين المؤرخين أن اسبانيا والبرتغال ـ وتليهما فرنسا ـ كانت أقل الدول نجاحا فى تجارب الاستعمار ، وهذه هى الدول التى بدات تجاربها وهى مرتبطة بسياسة رومة فى أحرج أوقاتها وأثقلها بالاعباء بين مخلفات الامس ومغامرات الغد المجهول

النهضات الوطنية

والمصاب الاخير الذى ابتلى به الاستعمار انما جاءه من فرائسه وضحاياه ، أو من حيث كان يحتسب المصاب الاول لو كانت حوادث هذه الدنيا تجرى على الترتيب فى حساب المترقبين والمتوقعين

وهذا المصاب على تأخيره فى الزمن لم يكن أخيرا فى قوته ولا فى خطره وبعد مرماه وسعة اثره . لان رفض الاستعمار من جانب فرائسه وضحاياه خليق ان يضارع جميع القوى الخارجية التى تحتمله أو تجاريه وتحيطه بالمساعدةوالتمكين

ولم تتأخر مقاومة الاستعمار من جانب المصابين به لانهم رفضوه بعد قبول أو انكروه بعد ولاء . فان كراهـة الحكم الاجنبى طبيعة فى النفوس لاتحتاج الى تعليم ولا الى تنبيه ، وما من انسان يحس أن أجنبيا يحكمه الا احس مع هـذا الاحساس البغيض بهوان فى نفسـه ونخوة تستثيره الى الغضب والمقاومة فلا يسلس قياده للحاكم الدخيل عليه . الا أن الاستعمار لم يغلب فرائسه وضحاياه بالخوف وحده فى مبدأ امره ، ولم يخضعهم بقوة الجيوش والاساطيل دون غيرها بعد الصدمة الاولى التى فوجئوا بها على حين غرة أو على غير علم منهم بمواطن ضعفهم وهزيمتهم ومواطن قوته وانتصاره . وما حدث قط فى تاريخ الصراع بين الشعوب أن قويا منتصرا أخضع قوما لسلطانه بمحض القوة المادية أو رهبة السلاح دون سواها ، وانما يخضعهم ويطيل خضوعهم له أن يروعهم بشيء من الاعجاب يملأهم ثقةبامتيازه ورجحانه ويزعزع ثقتهم بأنفسهم بين يديه ، وكأنهم بذلك يعترفون له بالحق الذى يدعيه وينكرون على انفسهم الحق فى مقاومته وتحديه ، وهذا هو السلاح الاكبر الذى يصيب الضحيةبمثل الشلل النفسانى فلا تقدر على الحراك حتى تفيق من غشية ذلك الاعجاب

وهكذا حدث بين المستعمرين وضحاياهم بعد صـدمة الاستعمار الاولى . فان هؤلاء الضحايا تمكن من نفوسهم شعور

مخيف برجحان المستعمرين عليهم فى العلم والنظام والقدرة على تصريف الامور وتذليل العقبات وتدارك الاخطار حتى خيل اليهم أن الخضوع لهم ضربة لازب وان التمرد عليهم ضرب من المحال

وكانت غاشية لا حيلة فيها بعد الصدمة الاولى ، ولكنها لم تلبث طويلا حتى اخذت تنقشع من هنا وهناك وتتكشف عن الحقيقة كلما تكشفت للمغلوبين مواطن القوة فيهم ومواطن الضعف فى الغالبين ، ووضح بعد قليل أن الزمن مع المغلوبين وان العاقبة لهم بعد حين ، وزاد فى تمكين هذه الثقة من نفوس ضحايا الاستعمار انها جاءت على مهل فترة بعد فترة، ودرسا بعد درس ، ومحاولة بعد محاولة ونجاحا بعد نجاح ، فكانت كالبناء الذى يرتفع على أساسه طبقة بعد طبقة ولا تعجل طبقة منه الى مكانها قبل أن تستقر دونه طبقة تسندها وتدعم جذورها

كانت فى أوربة نفسها حركات وطنية ظفرت بالاستقلال فكانت مثالا للقدوة ومبعثا للامل فى قلوب طلاب الحرية من الشرقيين

وانتصرت فى أبان سطوة الاستعمار دولة اليابان الشرقية على دولة من اكبر دول الغرب واضخمها اسما بين الشرقيين المصابين بالاستعمار على الخصوص ، وتلك هى دولة الروس القيصرية التى كانت تمثل العتو والطغيان على كل دولة مستقلة فى الشرق من تركيا الى ايران الى الصين الى اليابان

ونشبت الحرب العالمية الاولى فكانت كأنها المعركة فى بيت الارباب خرجت منها الاصنام المرهوبة حطاما فوق حطام ، وجاءت هذه الاصنام فى خلالها تطلب النجدة من عبادها



غاندى

وتقضى على البقية الباقية من شعائر عبادتها ، فظفرت بالنجدة وضيعت معالم الربوبية، وخرج المنتصرون منها يملون الشروط على المنهزمين ويتلقون الشروط من رعاياهم المشاركين لهم فى بلائهم وانتصارهم المطالبين لهم بحصتهم ، وفاء بما كالوا لهم أيام الحرب من وعود وما أبرموه من عهود

وظل المستعمرون بعد الحرب الاولى فى حالة تتيح لهم أن يراوغوا فى انجاز وعودهم وعهودهم او يعجلوا الوفاء بها فى كثير من التمويه والتزييف ، الى أن كانت الحرب العالمية الثانية ولما تندمل جراح الاولى ، فبلغ المطال بين الغريم والمدين غاية مداه . فلا مناص من احدى اثنتين : سداد او افلاس

هذا كله وضحايا الاستعمار يتيقظون ويتقدمون ويضيفون دراية التعلم الى دراية الخبرة من مراس الحوادث ومعاملة الامم والاطلاع على حقائق الاحوال فى بلاد الاقوياء والضعفاء على السواء ، وانفع ماتعلموه فى هذه الآونة انهم عرفوا مبلغ قدرتهم على المقاومة والمطالبة وعرفوا أنها قدرة لا يستخف بها القوى ولا تدعه على اطمئنان الى مافى يديه من غنائم الاستعمار واسلابه ، ولعلها لاتحرمه الغنيمة والسلب كل الحرمان ، بل لعلها غير مطلوب منها ان تجشمه كل ذلك الحرمان ، فانها اذا جعلت خسارته اكبر من ربحه وجعلت قلقه واضطرابه ارجح من أمنه واطمئنانه ــ كان ذلك حسبها من نجاح وحسبه من خذلان

واتبع التقدم فى المعرفة تقدم فى العمل والصناعة . فنشأت بين الامم المحكومة أعمال ناجحة يتولاها ابناؤها وصناعات متقدمة يملكها أغنياؤها ويديرها خبراؤها وصناعها ، ولعل المزاحمة هنا أيضا لم تبلغ بالصناعة الوطنية أن ترجح على

صناعة المستعمرين بعد طول العهد باتقان العمل وحسن الادارة وانتشار النفوذ اللازم للتصريف والترويج ، ولكن الصناعة الوطنية لايطلب منها أن تبلغ هذا المبلغ فى ميدان المزاحمة العالمية ، وانما يطلب منها أن تجعل المزاحمة عملا كثير الاعباء قليل الجدوى ، تزيد أعباؤه فى تكاليف الاستعمار واخطاره وتقلل من جدواه وضمان عقباه ...

ظاهرة طبيعية صغيرة تقرب الينا صورة هذه الظاهرة المتشعبة فى أطوار الانسانية وان كانت لا تماثلها فى جميع خصائصها : أن الضغط الجوى يهشم القدح الصغير اذا خلا هذا القدح من الهواء ، ولكن هذا القدح الصغير لا يحتاج الى مقدار من الهواء كالمقدار الذى يخفق فى أجواء الفضاء ليدفع عنه ضغطها الساحق ، بل يكفيه ملؤه من هواء ليحمى نفسه من السحق ، ولو كان من زجاج أو ورق هزيل

فما هو الا أن امتلأت أمم الاوطان المستعمرة بقوتها الوطنية حتى تسنى لها أن تصمد فى المقاومة وتأمن السحق والفناء فى مقاومتها ، وسرت عدوى المقاومة الى الاوطان التى تخلفت عن سائر الامم المحكومة التى تقدمت فى مضمار العلم والحضارة ، فنهضت للمطالبة بالحقوق شعوب لم تكن لتجسر على رفع الصوت لولا صدى الاصوات التى سمعتها من زميلاتها فى الاسر والضيق ، وشوهدت آثار هذه العدوى الصالحة بين الشعوب الاسيوية والشعوب الافريقية فى أوقات متقاربة ، فهبت للمطالبة بالاستقلال التام شعوب كانت تقنع بالحكومة الذاتية وترضى بشكل من اشكالها المحدودة لو لم تسبقها زميلاتها وشبيهاتها الى نصيب أوفى من نصيبها وحرية أوسع من حريتها

وسرت العدوى بين الطرف الآخر كما سرت بين هذا الطرف المغلوب : سرت الى المستعمرين فاضطرت أشدهم قسوة الى التخفيف من قسوته ، وجعلت حاكم الشعوب المتخلفة حريصا على الاقتداء بحاكم الشعوب المتقدمة فى أساليب الترضية والمحاسنة او فى احابيل التهدئة والمراوغة ، وفعلت هذه العدوى المحتومة فعلها المشكور فى تخفيف القيود وتحسين الاحوال

هذه النهضات الوطنية كانت ولا ريب أهم العوامل التى ضعضعت قوى الاستعمار فيما مضى ولا تزال تجهز عليه فى دور النزع والاحتضار ، فلولا هذه النهضات الوطنبة لما كانت سائر العوامل العالمية كافية لاخراج المستعمرين من مستعمراتهم فى هذه الفترة الوجيزة بالقياس الى أعمار الشعوب ، ومهما يكن من كثرة المصاعب حول المستعمرات فالحاكم المطمئن الى داخل مستعمرته خليق أن يصبر على المصاعب الخارجية وأن يطاولها فترة أخرى ، موكولا الى مشيئته بعد ذلك فى البقاء أو الخروج

فالنهضات الوطنية ـ وان لم تكن هى العامل الوحيد الذى قضى على الاستعمار ـ قد كانت هى العامل الوحيد الذى لا غنى عنه فى النهاية للقضاء عليه

الا أن هذه النهضات قد لقيت من الظروف العالمية أقوى المشجعات وأنفع الاعوان ، وسواء جاءت هذه الظروف العالمية مقصودة أو غير مقصودة فهى ولا ريب قد وجدت فى أوانها وحققت فوائدها بتدبير مقصود أو على الرغم من كل تدبير مقصود ...

كان من دواعى القضاء على الاستعمار ان العلاقات العالمية

قد اخذت فى الاتساع والاشتباك قبل أن يستقر الاستعمار على قرار وطيد

وكان اشتباك العلاقات العالمية أول أسباب النزاع بين المستعمرين الاقوياء ، فكان هذا الاشتباك ـ من ثم ـ أول مسالك « الباب المفتوح » وأشدالضربات التى أصابتالاحتكار فى مقتله من ايدى الاقوياء

ولم تزل العلاقات العالمية تشتبك بين الاقطار المتباعدة بمواصلات البر والبحر والهواء ، ولم تزل مع هذا تشتبك بمعاملات التجارة والصناعة ومطالب التصدير والتوريد ، ولم تزل مع هذا وذاك تشتبك بالاخبار المسموعة والمقروءة التى تملأ الكرة الارضية فى صباحها قبل أن يهبط عليها المساء أو فى مسائها قبل أن يشرق عليها الصباح ، فأصبحت كل بقعة من بقاع الارض عصبا فى جهاز واحد من بنية واحدة تضطرب فى أقصى العالم هنا فيضطرب لها أقصاه من هناك ، واصبحت كل أمة تسكن فى بقعة من تلك البقاع شيئا محسوسا حاضر الاثر فى السياسة العالمية لايتجاهله الاقوياء ولا يخرجونه من الحساب ، بل ربما أخرجوا من حسابهم أمثالهم الاقوياء ، لانهم فرغوا من أمرهم واستعدوا لهمبعدتهم وتربصوا بهم الى حتفهم فلا حيلة فيهم ولا علاقة بينهم غير العداء السافر أو العداء المستور . أما الامم الضعيفة فلا غنى لهم عن ارضائها على وجه من الوجوه ، وليس فى وسعهم أن يحتاطوا لها أو يأمنوا اذاها فى أحرج المواقف وأعنفالاوقات، وماذا يمنع الامة الضعيفة مثلا أن تعرقل مواصلاتها أياما يتوقف عليها مجرى القتال فى أكبر الميادين ؟ وماذا يمنعها أن تعرقل سيل البترول من ينبوعه الى مصبه القريب أو

البعيد ؟ وماذا يمنعها أن تعرقل التموين باحتجاز ما عندها أو احتجاز المؤنة العابرة في أرضها ؟

كل هذا واشباهه سهل على الامم الضعيفة في أبان الحرج، وكله مما يخشاه الاقوياء ولا سبيل لهم الى اتقائه الا باستعمار العالم بأسره وهم لا يتفقون عليه ، أو باسترضاء الضعفاء وهذا الذي اضطرتهم الحوادث اليه

بل قد اضطرتهم الحوادث كارهين في مازق الحرب العالمية الى امداد الامم المغلوبة بالسلاح لمقاومة اعدائهم واعدائها من المستعمرين الآخرين . فسلم اليابانيون أسلحتهم للوطنيين في أندونيسية حين حاقت بهم الهزيمة ، فكانت هذه الاسلحة عونا قويا لابناء البلاد في مناضلة الهولنديين ما كانوا ليظفروا به طواعية من طغاة اليابان ولا من طغاة اوربة لولا هذا المأزق الذي لا حيلة لهم فيه ...

□

وعلينا أن نذكر هذه العبرة ــ عبرة العوامل المشتركة ــ عند البحث في أطوار التاريخ العظمى التي تشمل بآثارها أمما كثيرة ولا تنحصر في أمة واحدة

فالنهضات الوطنية ، ونهاية الاحتكار ، واشتباك العلاقات العالمية ، كلها أطوار متساوقة متقاربة في أوقاتها وآثارها ، لا يعمل منها عامل واحد بغير مساندة من العوامل المصاحبة له في أوانه ، ولا يتأتى أن تنفصل وتتفرق في مواقيتها لانها بطبيعتها تنبع من مصادر كثيرة ولا تجري في مجرى واحد

على أن الاستعمار انواع شتى تختلف مصائره باختلاف انواعه واختلاف اطوار الحوادث في كل نوع منها

واشهر أنواع الاستعمار هى الاستعمار الاقتصادي واستعمار التوطن واستعمار الموقع أو الاستحكامات العسكرية ، وقد كان للاطوار العالمية اثر فى كل نوع من هذه الانواع غير الاثر الذى تعرض له النوع الآخر ، وان كانت كلها تتجه الى الادبار وتشعر كل يوم بمشقة جديدة فى سبيل الاحتيال على البقاء بين التيارات المتعارضة

أصبح الاستعمار الاقتصادى كبير التكاليف بين المزاحمة من جهة والمقاومة من جهة اخرى ، فانهدم من اساسه بكثرة تكاليفه ، لانه لايكون استعمارا اقتصاديا اذا لم يكن يسير التكاليف موافقا لاول مبادىء الاقتصاد

أصبح هذا الاستعمار الاقتصادى خسارة صريحة أو ربحا يسهل الاستغناء عنه عند النظر الى نفقاته واعبائه ، ومنها نفقات الحراسة والمقاومة والاستعداد الدائم لمطالب الدفاع أو مطالب الهجوم ، واذا أضيف الى هذه الاعباء أن الدولة التى تستأثر بحكم المستعمرة لا تستأثر بأسواقها ولا بخاماتها ولا بسياستها الخاضعة على نحو من الانحاء لدواعى السياسة العالمية — فهى فى الواقع لا تستأثر بشىء غير متاعب الحكم ونفقاته ، وما بقى للدولة الحاكمة بعد هذه المتاعب ذهبت به منافسة الصناعة الوطنية وارتفاع أجور الايدى العاملة فيها حقبة بعد حقبة ، فلا اختيار لهذه الدولة بعد الموازنة بين الصفقتين غير الجلاء والتراجع بسلام

والمخرج من استعمار التوطن اصعب من ذلك كثيرا فى جميع الاحوال وعلى جميع الفروض ، ايا كانت نتيجة الموازنة بين الصفقتين من خسارة صريحة أو من ربح متعب محفوف بالاخطار ...

فاذا كان فى البلد المحكوم مليون من المستعمرين الاجانب يملكون فيه الارض والمرافق ويزرعون فيه ويتجرون فليست المشكلة هنا مشكلة ربح أو خسارة ، ولا هى مشكلة ربح بثمن بخس أو ربح بثمن غال ، ولكنها مشكلة الجلاء الذى يقتلع المستعمرين من جذورهم أو البقاء الذى يدغمهم فى سواد الامة المحكومة على طول الزمن طائعين أو كارهين

ولكن ماهى النهاية على اية حال ؟ اذا كان جلاء المليون عسيرا فأعسر منه فناء عشرات الملايين ، وبخاصة حين يكون الزمن الى جانب هؤلاء الملايين ومعه الظروف العالمية وظروف السياسة الداخلية فى البلد المسيطر على المستعمرة ، فلا نهاية لهذا النضال غير التسليم بحقيقة الحال ، وحقيقة الحال ان الاجنبى المستعمر مغلوب على الحالين فى الحل والترحال ، كيفما كان المآل

اما استعمار الموقع ، او الاستحكامات العسكرية ، فلا فائدة فيه للدولة القوية الا اذا توافرت له شروطه الضرورية ، واهم هذه الشروط ان تشعر الامة الضعيفة باشتراكها فى الخطر الذى يدعو الى استخدام ذلك الموقع عند وقوع الحرب او قبل وقوعها فى ايام السلام ، فاذا كانت الامة الضعيفة لاتشعر بخطر يهددها فالدولة القوية التى تحتل مواقعها على الرغم منها تحارب عدوين بدلا من عدو واحد ، وليس هذا من الحيطة التى يطمئن اليها المستعمرون ، ولا سيما الحيطة فى ابان القتال

ومن الشروط الضرورية لاستعمار الموقع ان يوافق المصالح الاقتصادية لكلا الطرفين ، وان يقترن — مع تبادل المصلحة — بتبادل الرضى والاحترام ، والا يكون استخدام الموقع

افتياتا على حرية الامة التى تملـــكه وتملك الحق فى الاذن باستخدامه عند لزومه ، والا تساوى عنـــدها الطرفان : من يستولى على الموقع احتياطا قبل القتال ومن يستولى عليـــه اغتصابا بعد الفراغ من القتال

ومن الشروط الضرورية لاستعمار الموقع فىعصر الملاقات العالمية أن تكون له صبغة عالمية مشتركة ولا تكون المصلحة فيه مقصورة على دولة واحدة ، وبهذه الصفة يمتنع فيـــه التحكم والاضطرار ويجرى العمـــل فيه على سنة الوساطة والتحكيم بين الشركاء كما يجرى بين الانداد والنظـــراء ، ولا تزيد فيه حقوق احد الا بمقدار ماتزيد الفروض والواجبات باتفاق معروف بين الجميع

□

وصفوة القول فى مصير الاستعمار ان العالم يشهد فىالعصر الحاضر نهاية الاستعمار بجميعأنواعه ، وانه منته الى الزوال لا محالة كلما ظهر للاقوياء والضعفاء ان اثمه أكبر من نفعه وأن علاقة التفاهم والاختيار اسلم للاقوياء من علاقة الارهاب والاغتصـــــاب ...

النموذج الجديد

الولايات المتحدة الامريكية هى النموذج الجديد للدولة العالمية منذ الربع الثانى للقرن العشرين

وهى أقوى دول الارض واغناها واكثرها اشتباكا بالمصالح والعلاقات فى أنحاء العالمين القديم والحديث

هذه هى الدولة التى كان الساسة فيها يتناقشون الى مابعد قيام عصبة الامم فى امكان العزلة أو امكان المضى على تطبيق مذهب «مونرو» بشقيه فلا يد للاوربيين فى قضايا امريكاولايد لامريكا فى قضايا الاوربيين

وينقضى جيل ـ أو دون الجيل ـ واذا بهذه العزلة ممكنة ـ ان أمكنت ـ فى كل دولة الا فى دولة الولايات المتحدة

ولا حجة اقوى من هذه الحجة على سلطان القضاء الالهى فى شئون الدول وشئون بنى الانسان على التعميم

وهذا النموذج الجديد يأتى بدور سياسىمفروض على الدولة التى تمثلهكما هومفروض علىالدول التى تناصرها أوتعارضها. فاذا قال قائل ماذا يريد هذا السياسى أو ماذا يعنى ذلك البرنامج ، فمن الحتم اللزام عليه أن يسأل مع هذا السؤال : وماذا يستطيع ان أراد ؟ وماذا يحدث على غير تقدير اذا حدث هذا الحادث أو ذاك على حسب التقدير

ان الولايات المتحدة عرفت أدوار الاستعمار جميعا وان صحبت أشواطا منه فى منتصف الطريق ولم تصحبها من أوائل الطريق

كانت مستعمرة للتوطن والاستغلال والهجرة ، وكانت تنازع ابناء امريكا الاصلاء وتأبى أن ينازعها الوافدون الدخلاء ، من غير المهاجرين الاولين

وشغلها الخلاص من «الاستعمار الاوربى» فى تاريخها الاول عن الدخول فى ميدان الاستعمار والمغامرة مع المستعمرين ، ثم شغلتها حروب التوحيد والتوطيد عن السياسة الخارجية فى غيرهذه القضية ، ثم شغلها بعد ذلك أن تحمى نفسها من الاغارة الجديدة فشرعت لها مذهبا يحرم على الاوربيين أن يحتلوا أرضا من العالم الجديد أو يتدخلوا فى مشكلاته بقوة السلاح، واوشكت أن تجعل «التعامل» معه محرما على غيرها لولا أن التعامل الاقتصادى فى تلك الحقبة على الخصوص لم يكن قابلا للتقييد

وبادرت الدولة البريطانية الى الاعتراف بمذهب «منرو» وتأييده فى شئون القارة الامريكية ، لانها تكسب بذلك حماية البقية الباقية لها فى امريكا الشمالية وامريكا الوسطى ، وبعض أطراف الجنوب

واستراحت الولايات المتحدة الى هذا الاعتراف لانه أعفاها من العناية بحراسة المحيط الاطلسى، فتحولت بعنايتها الخارجية جميعا الى المحيط الهادىء ، أيام ان كان هذا المحيط الهادىء «بحرا هائجا» لاهدوء فيه

كانت الدول الاوربية قد تزاحمت على استعمار الصين واكتساب الرخص والامتيازات فى مرافقها الداخلية ، وكانت اليابان تتحفز للهجوم على القارة الاسيوية ، وروسيا من الطرف الآخر تتحفز لتعويض نصيبها من المستعمرات بعد أن حيل بينها وبين مضايق البوسفور والدردنيل ورصدت لها انجلترا

قوتها عند خليج فارس وعلى الطريق الوسطى الى الحـــدود الهندية حتى بلاد الافغان

وفى أثناء ذلك كانت الولايات المتحدة تفعل كل ما تستطيعه لتوسيع رقعتها فى القارة الامريكية ، بالتعاهد والشراء أو بالقوة اذا تعذر الاتفاق على التعاهد والشراء ، واشترت «الاسكا» فى سنة ١٨٦٧ من روسيا ، وحاربت اسبانيا سنة ١٨٩٨ من جراء الفتنــــة فى جزيرة «كوبا» فأســـفرت الحرب عن نزع جوام وبورتريكو وجزر الفلبين من الدولة الاسبانية وضمها الى املاك الولايات المتحدة ، ثم استتبع ذلك أن تضم اليها جزر «هواى» تلبية لدعوة المتوطنين من رعاياها

فلما جاء دور الدولة الجديدة فى استعمار آسيا الشرقية لم يكن لها موضع بين أمهات الاستعمار السابقات الى الصين،وكان التنازع على الرخص والامتيازات قد اوشك غير مرة أن يجر الغرب كله الى الحرب فى الميادين الاسيوية والميادين الاوربية ، فأصبح استعمار الفتح والاحتلال بابا مغلقا فى وجه الطـــامع الجديد وبابا خطرا يخشاه الطامعون الاقدمون،وقادت الولايات المتحدة حملة « الباب المفتوح » فى تقسيم المرافق الصينية . فكل رخصة تعطاها دولة من الدول تعتبر رخصة عامة على التساوى بين الدول جميعا ، بغير حاجة الى نص مكتوب

والى هنا كانت الولايات المتحدة قد اشــــتركت فى أدوار الاستعمار على أنواعها الحديثة ، من الفتح الى التوطن الى الهجرة الى صفقات البيع والمقايضة الى «الاســــتعمار الجماعى» على برنامج الباب المفتوح

لكنها تخرج الآن من الحرب العالمية الثانية بنموذج جديد

لاتقوى على منافستها فيه دولة من الدول العالمية ، فلا تزال سياسة الباب المفتوح أوفق السياسات لها فى محاولات النفوذ العالمية ، لانها اشبه بالسباق المفتوح امام الخيل جميعا ، وعلى راسها الجواد السابق فى جميع الاشواط

فهى اليوم تحتاج الى كف الآخرين عن احتكار المستعمرات ، لانها تكسب ولا تخسر بالكف عن الاحتكار ، وليس مما يطيب لها ـ بداهة ـ أن ينعم غيرها باحتكار سوق من الاسواق وتتلقى هى النتائج التى يؤدى اليها الاحتكار والتنازع عليه ، ومن هـذه النتائج حرب عالمية لا تملك العزلة فيها كما كانت تملكها الى عهد غير بعيد

وقد يحتاج صاحب الحانوت الى احتكار سوق من الاسواق اذا كانت له بضاعة فيها ينافسها النظراء ويقدرون على ترويجها بسعر أرخص من سعره ووسيلة أيسر من وسيلته ولكن هـذا الاحتكار أبغض مايكون الى التاجر الذى يعرف ثروته ويعرف قدرته ويعرف ان اطلاق الاسواق جميعا يكاد أن ينتهى الى احتكارها له على اضطرار من البائع والشارى فى نهاية المطاف

□

ومن لغو الفضول أن يضاع الوقت فى اثبات الغرض لكل دولة تعمل فى سياسة العالم باسم المصالح العالمية او باسم المصالح الانسانية أو باسم المصلحة القومية سافرة ظاهرة بغير تورية ولا تزويق . فان عمل الدولة لغرض من الاغراض حقيقة مفروغ منها لاتحتاج الى اضاعة الوقت فى الجدل بين الاثبات والانكار ، وبعد الفى سنة من الآن قد توجد دولة كبيرة ـ ان بقى المجال للدول الكبار فى ذلك الزمن ـ فيوجد معها لا محالة

غرض تسعى اليه وتقدمه على أغراض تناقضه وتدابره ، ويقول القائلون ما شاءوا عن خدمة الانسانية أو خدمة العالم فهذا لا يمنع أن يكون للدولة أسلوب فى الخدمة يخالف أساليب غيرها وأن يكون غرضها من السطوة والثروة هو الغرض المقدم على سائر الاغراض فى زمانها ..

اما النموذج الامريكى من الدولة العالميـــة فالذى تبين من دوافعه التى يقصدها ، ومن الدوافع التى ينساق اليها ، انه يرمى فى سياسته الخارجية والداخلية الى اغراض منوعة أهمها الاغراض الثلاثة التالية :

فالغرض الاول ـ هو كسب النفوذ فى السياسة العالميـة والانتفاع فى سبيل ذلك بكل ما لديه من الوسائل الاقتصادية والادبية

والغرض الثانى ـ احباط الدعوة الشيوعية وضرب الحصار عليها للرجوع بها الى أضيق حدودها

والغرض الثالث ـ تخفيف الضغط الداخلى الذى يتجدد على الدوام من فرط التضخم المالى فى الاسواق الامريكية ، فان ارسال التبرعات والمعونات الى الخارج مصرف ضرورى للاموال المتجمعة فى بلاد الولايات المتحدة ، وكل زيادة فى هذه الاموال داخل البلاد فهى زيادة فى الغلاء وزيادة فى أزمات الاجور والعمل وفى الاخطار الاجتماعية التى يخشى أن تنفجر من وراء هـــذه الازمات ..

والذى يعنى أبناء الامم العالمية من هذه الاغراض الثلاثة هو الغرض الذى يرمى الى تغليب النفوذ الامريكى على سياســة العالم . فان حماية النفس توجب على أمم العالم أن تحول بين

هذا النفوذ وبين الطغيان على حرياتها وحقوقها وشعائر استقلالها، وأن تحول النفوذ الامريكى الى مصلحة عالمية بدلا من تحويل المصلحة العالمية الى نفوذ غالب للدولة الامريكية

ولقد وجدت فى الكرة الارضية وسائل المقاومة لهذا النفوذ يوم وجدت له وسائل الغلبة. واستطاعت دولة واحدة أن تجمع من السلطان ما لم يجتمع لدول كثيرة ، مما يوشك أن يجعل السلطان حكرا لها فى العصر الذى ينقضى فيه حكر الاستعمار

ووسائل المقاومة فى هذا الميدان منوعة غير مطردة فى كل قضية ، ولكنها تئول فى القضايا جميعا الى هذه الوسائل الثلاث

و«أولها» الاستقلال القومى ، فانه فى هذا الزمن الحديث قوة يعترف بها الواقع قبل أن تعترف بها النصوص والمواثيق

والوسيلة الثانية هى التعاون بين الشعوب التى تصبح بالتعاون قوة عالمية تثبت كيانها أمام كل دولة عالمية يكون لها من القوة والثروة فوق ماينبغى لدولة واحدة

والوسيلة الثالثة هى الانتفاع بظروف الدول القوية فى حالتى الاتفاق والافتراق ، أو هى الانتفاع بالاوضاع العالمية الحديثة التى جعلت كل أمة صغيرة قادرة على عمل نافع أو ضار يحسب الاقوياء حسابه فى ظرف من الظروف

ويحاول بعض الساسة أن يلقى فى روع الامم أن «الحيدة» فى سياسة العصر العالمية مستحيلة ، أو ممكنة بالثمن الذى يجعلها فى حكم المستحيل

والحيدة فى رأينا مستحيلة بين الشيوعية والديمقراطية

ولكنها غير مستحيلة بين الدول والحكومات فى قضايا العالم متفرقات

فليس كل ماتعمله أمريكا ديمقراطية ، وليس كل ماتعمله

روسيا شيوعية ، وليست كل قضية من القضايا مقطع الفصل بين العقيدتين

وينبغى أن تكون الحيدة بصيرة على كل حال ، فان الحيدة العمياء كالتشيع الاعمى خبط عشواء لايفرق بين الاعداء ولا بين الاصدقاء

□

وننتهى الى الوضع الصحيح لكل دولة عالمية منذ منتصف هذا القرن الى أن تتبدل الاحوال على نمط جديد غير نمطها الاخير

ان المسألة كلها لتعزى اليوم الى مسألة نفوذ بوسائله ومسألة مقاومة بوسائلها التى تجدى فى كل حالة من حالاته

ومتى وضعت القضية فى موضعها هذا فليس فى الامر فلسفة مبادىء ولا برامج دعوة ولا رأى يقبله هذا ويرفضه ذاك

فأيا كانت الفلسفة أو كان البرنامج أو الرأى ، فالذى عنده - النفوذ يفعل به ما هو قادر عليه ، والذى يحذر ذلك النفوذ يفعل كل ماهو قادر عليه لدفعه واتقاء ضرره

ويشاء حظ العالم أن تكون وسائل النفوذ العالمى مقرونة بوسائل المقاومة العالمية ، ولا عبرة اليوم أو غدا باختلاف العناوين فى كل قضية تخص بعض الامم أو تعم الامم جميعا ان هى الا أسماء

وبعد

وبعد فقد مرت بنا فى الصفحات الماضية صورتان فيهما ملامح واضحة ــ وان تكن موجزة ــ لكل من الاستعمار والشيوعية فى وضعهما الصحيح من تاريخ العصر الحاضر

فالاستعمار حركة من حركات التاريخ الدولى بلغت نهايتها وفقدت حجة وجودها

ومن فقدان حجة وجودها أنها لاتستند الى مبدأ ولا تدعيه . فلا يوجد اليوم من أساطين الاستعمار من يقول أنه مستعمر أو يقال عنه أنه مستعمر فيقبل هذه التسمية . ومن كان من المستعمرين يتشبث بدعوى القوامة من الجنس الابيض على سائر الاجناس فهو يلوذ بهذه الدعوى من مكان الى مكان ويكاد يقصرها على أرجاء من القارة الافريقية فى السنوات الاخيرة ، وتضطره وقائع العالم وأطوار الشعوب التى يعاملها الى التحفظ الكثير فى استغلال دعواه . فهو لايستطيع «أولا» أن ينكر حق شعب من الشعوب فى حكم نفسه وان راوغ فى تقدير الوقت الذى يتولى فيه حقه ، وهو لايستطيع «ثانيا» أن يستأثر بأمانة الرجل الابيض لدولة واحدة تنهض بها من عند نفسها بغير موافقة من زميلاتها فى الاستعمارومن زميلات الامةالمحكومة فى مقاومة الاستعمار ، وهو لايستطيع «ثالثا» أن يبنى دعواه كلها على أمانة الرجل الابيض موكولة الى دولة واحدة أومجموعة من الدول ، بل يحاول جهده أن يقرن هذه التعلة «الادبية» بتعلة واقعية تدور على دعوى السلام العام والحيطة المشتركة لمدافعة

الاخطار العالمية ، وهو ـ بعد هذه الضروب الكثيرة من التحفظ والروغان ـ يحاول بما فى وسعه أن ينشىء له مع الامة المحكومة علاقة غير علاقة السيد والمسود ، وقد تكون هذه العلاقة قائمة على الاشتراك فى «الكومنولث» أو فى مجموعة دولية واحدة أوفى اتحاد بين أعضاء على درجات متقاربة من المساواة

واذا كان الاستعمار قد فقد مبداه عند أصحابه فهو من قبل ذلك لم يكن له مبدأ يستند اليه عند ضحاياه . فلم يوجد من قبلَ ـ ولن يوجد اليوم ـ انسان ينتمى الى بلد مغلوب ينادى بمبدأ الاستعمار ويتردد فى وصف العاملين على خدمته فى بلادهم بصفة الخيانة والاجرام

حركة من حركات التاريخ قد صارت الى نهايتها وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع الذى يتراجع أمام واقع أعظم منه وأجدر بالثبات فى مجرى الحوادث. فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مطامعه وليس لهذا المبدأ قيمة السند المرعى عند من ينتفع به فضلا عن المتكوبين بدعواه

□

هذا هو وضع الاستعمار فى التاريخ الحديث

أما الشيوعية فهى استعمار وشىء آخر غير الاستعمار

ومصير الشيوعية المستعمرة كمصير الحركة كلها فى مراحلها التاريخية ، ولكنها تختلف كثيرا فى أخطارها لانها لاتأتى بأخطار الاستعمار خالصة من أخطار الدعوة التى تعم المستعمرين الشيوعيين وضحاياهم على السواء

فاذا علمنا أن الاستعمار قد فقد حجته وضيع مبداه الذى يستند اليه ـ فالشيوعية تدعو الى مبدأ وتنادى بأنه هو المبدأ

الذى لامبدأ غيره بعد حين ، وحجتها اذا حبطت فى الحاضر أنها تعمل للمستقبل وترجو من النجاح فيه مافاتها أن تدركه فى خطواتها الاولى

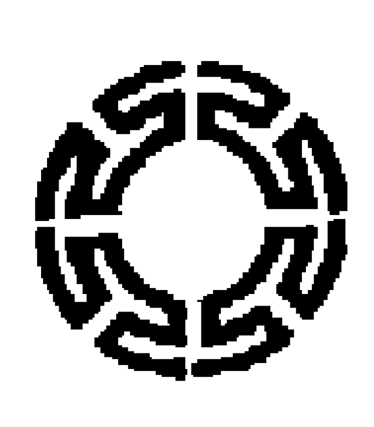
والخطر من الشيوعية أنها تفقد ضحاياها القدرة على المقاومة، لانها لاتبقى لهم تلك الكرامة القومية التى تجمعت ومازالت تتجمع بين أبناء الامم المحكومة حتى اقتلعت الاستعمار من جذوره وتكاد تقتلع تلك الجذور من كل أرض نبت فيها

فالاستعمار فى الهند لم يقدر على استئصال عناصر المقاومة ولم يزل يثير سخط الهنود عليه حتى تألبت منهم امة متفقة فى كراهته معتزة بكرامتها على سلطانه، ولكن الامة من الامم لاتبتلى بالشيوعية بضع سنوات ثم تبقى فيها بقية للكرامة الوطنية تحفظ كيانها وتعيد لها أركانها ، لانها تمحو الامة ولا تبقى منها غير قطيع من الطغام المهازيل لايشعرون بعاطفة عامة تجمعهم وتهدد سادتهم ، وما يشعرون به من «عاطفة» الحسد والقحة فانما يثيرهم على النعمة والمزية ولا يثيرهم على الطغيان والجبروت ، ويستغله السيد الغاصب المنتفع بطغيانه وجبروته على أيسر الوجوه بقليل من شقشقة اللسان وكثير من سموم الضغينة والشنآن

والكلمة الاخيرة فى هذه العجالة أننا اذا عرفنا مساوىء الشيوعية والاستعمار فلا محل عندنا للشيوعية والاستعمار ، فانهما شران لاتبقى منهما بقية ويبقى معها خير لامة شرقية ، وكل ما بين الشر والشر من فارق فهو الفارق فى الجهود التى تلزمنا التيقظ له والحيطة منه والسعى الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه



صفحة



الـكتاب القـادم

قصة الوحدة العربية

بقـلم

أنور السادات

يصدر في ٥ ديسمبر

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيـدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ـ ما عدا كتابى زينب ومع الله فى السماء وابتداء من كتاب « قال الرئيس » (العدد ٧١) ١٠٠ مليم ـ بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ـ عبقرية محمد (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد (نفدت)
تأليف المرحوم الدكتور احمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفدت)
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف اوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد ابو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر «نفدت»
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ أشعب أمير الطفيليين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج (نفدت)
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان (نفدت)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ــ عبقرية خالد (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ــ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ. س. ارمستوونج

١٧ ــ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ــ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ــ لا تخف (نفدت)
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ــ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ــ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ــ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

٢٣ ــ مذكرات عرابى
جزء اول (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٤ ــ مذكرات عرابى
جزء ثان (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٥ ــ عبقرية عمر (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ــ آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ــ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ــ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ــ ابو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ ــ البؤساء (نفدت)
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ــ علمتنى الحياة (نفدت)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ــ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ــ مدرسة المغفلين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ــ لا تقتل نفسك
تأليف بيتر شتاينكرون

٣٥ ــ عصاميون من الشرق والغرب (نفدت)
لنخبة من كبار الكتاب

٣٦ ــ الارواح المتمردة ــ الاجنحة المتكسرة ــ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ــ ذو النورين عثمان بن عفان (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ــ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

٣٩ ــ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ قادة النيل
تأليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه

٥٣ ـ ألف ليلة وليلة (نفدت)
(الجزء الاول)

٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم

٥٧ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

٥٨ ـ معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

٥٩ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

٦٠ ـ اعرف نفسك
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

٦٢ ـ مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور احمد زكى

٦٣ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

٦٤ ـ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف انور السادات

٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٦٧ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد

٦٨ ـ شاعرة الطليعة عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى

٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ـ بطل الكفاح الشهيدمحمدفريد
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر

٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان

٧٣ ـ محمد الرسول البشر (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم

٧٥ ـ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف انور السادات

٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف انور السادات

٧٧ ـ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم

٧٨ ـ البؤساء
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم

٧٩ ـ اخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمدبك عز العرب (« المبتديان ») بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطاومن السيد محمدمحمودحلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغدادومن شركةفرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ومن جميع المكتبات الشهيرة واكشاك الصحف ، ماعدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسي بطريق الملكي المتفرع من شارع بيكو في بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

هذا الكتاب

تقدم سلسلة كتاب الهلال هذا البحث الجديد عن الشيوعية والاستعمار

وقد تحدث الأستاذ العقاد في الجزء الأول عن الشيوعية وفي الجزء الثاني عن الاستعمار ، وهو لا يعقد هذه الفصول [illegible] للموازنة بين الأمرين ، ولكنه أفاض في الكشف عن الشيوعية والاستعمار وأساليبهما والسبل التي يسلكانها لتحقيق أهدافهما [illegible] ما ينتظر أن يطرأ عليهما من التطور

ولقد ألم الأستاذ العقاد بكل شيء عن الشيوعية وعن الاستعمار إلماما واسعا مستفيضا ، فلم يدع [illegible] تعرض لسائل ، فأحاط بالموضوع إحاطة [illegible] الدارس المتعمق ، وعداء الأستاذ العقاد للشيوعية والاستعمار عداء قديم ، وقد ساق في هذا الكتاب الأدلة القاطعة على سبب هذا العداء وعلى صحة نظرته إليهما ، ثم ينتهي به هذا البحث [illegible] أن لا شيوعية ولا استعمار لنا ، وأن علينا نحن الشرقيين أن نعمل على [illegible] يقينا شر الشيوعية وشر الاستعمار

